بلاغة النظم القرآني في ضبط سلوكيات المجتمع
من خلال سورة الحجرات
(دراسة تحليلية)

بقلم الدكتور

دعاء عبد السلام حامد عبد السلام

مدرس بشعبة اللغة العربية، قسم البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن ليكون هدايةً للعالمين، ودستوراً للمؤمنين، وشفاءً لما في الصدور، والصلاة والسلام على خاتم النبيين المبعوث ليتمم مكارم الأخلاق، **وبعد:**

فالخطاب القرآني فيه إصلاح للسلوك النفسي والاج تماعي، وله تأثيره العجيب على من تدبره أو استمع إليه فكرياً ونفسياً وروحياً، لذا فهو قادر على تغيير مسار الفكر البشري وتعديل السلوك الإنساني، بالحث على الالتزام بالخلق السليم، ولما كان القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد فقد جاء مختلفاً في نظمه وأسلوبه وخطابه عن غيره من النصوص، **وهذا بحث عنوانه:**

بلاغة النظم القرآني في ضبط سلوكيات المجتمع

من خلال سورة الحجرات (دراسة تحليلية)

وقد آثر البحث تناول سورة الحجرات بالدرس والتحليل؛ لما تتضمنه من أخلاقيات وآداب صالحة لتقويم سلوك المسلم وبناء المجتمع والنهوض بالأمة، إذ ترسم المنهاج الصحيح والسلوك القويم للمؤمنين كي ترقى أخلاقهم فيرقى المجتمع برقيهم ومن ثم تنطلق آفاق هذا الرقي إلى كل المجتمعات.

لذا فمن أهم الدوافع لاختيار هذه السورة الكريمة:

١- الإسهام في الكشف عن بلاغة النظم القرآني في إحدى سور القرآن الكريم.

٢- إيضاح مدى وسطية الإسلام في المحافظة على تماسك المجتمع وترابطه، وصلاحية القيم الأخلاقية والآداب الاجتماعية لكل زمان ومكان، وفي آياتها منهج رباني كفيل بأن يوضح ذلك، حتى كأن آيات

سورة الحجرات بمثابة اتفاقية حقوق وواجبات، وميثاق قيم وأخلاق للمؤمنين.

ولأجل هذا سلكت الدراسة **المنهج التحليلي** بالبحث عن مواطن الإعجاز في الأسلوب، فكلام الله تعالى معجز مناسب للأحوال ومقتضياتها.

ويشمل هذا البحث : مقدمة، ومدخلاً، ومبحثين، على النحو التالي:

المقدمة: جاءت مشتملة على أهم دوافع اختيار الموضوع، مع الإشارة إلى منهج البحث، إضافة إلى الخطة، وتتوالى أجزاء البحث على النحو التالي:

المدخل تحت عنوان : **التعريف بسورة الحجرات**، وجاء فيه:

أولاً: السورة بين المكية والمدنية.

ثانياً: سر تسمية السورة.

ثالثاً: المقاصد والغرض العام من السورة الكريمة.

رابعاً: مناسبة السورة لما قبلها.

خامساً: أسباب النزول.

المبحث الأول: تحليل النظم في سورة الحجرات.

ويسعى هذا المبحث إلى الكشف عن بلاغة النظم في السورة وبيان بعض وجوه الإعجاز، وذلك باستخراج بعض لطائف النظم في الألفاظ والمعاني والتراكيب، لذا فقد قسمت آيات السورة الكريمة تحت عدة معاني وأغراض جزئية تعبر عن الآداب والسلوكيات الواردة في سورة الحجرات ومن ثم كانت عناية البحث بدراسة بلاغة النظم المعبر عن كل معنى من هذه المعاني.

المبحث الثاني: الخصائص الأسلوبية للنظم القرآني في سورة الحجرات.

يلي ذلك الخاتمة والتي ذكر فيها أهم نتائج البحث، ثم ثبت للمصادر والمراجع، يعقبه فهرس الموضوعات.

مدخل

التعريف بسورة الحجرات

يهدف النظم القرآني لسورة الحجرات إلى هدم السلبيات وتنشيط الإيجابيات من سلوك المجتمع وتأصيل المباديء وزرع القيم الإيجابية في نفوس الأفراد حتى ترقى المجتمعات، وقد رسخ قيماً دينية واجتماعية مقبولة لكل إنسان سوي مثل احترام الآخر ومراعاة حقوقه والتواصل الاجتماعي.

ويبدو من خلال الخطاب القرآني في السورة الكريمة أن أهم السلوكيات الإيجابية: احترام حقوق الأفراد داخل المجتمع واحترام حقوق المجتمع وواجباته، وهذا كله مبني على أساس يجب على المؤمن ألا يحيد عنه أو يتجاوزه ألا وهو: اتباع حكم الله ورسوله.

فسورة الحجرات "نزلت في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب زيادة على ما تضمنت من الأحكام الشرعية والهدايات القرآنية"[١].

أولاً: السورة بين المكية والمدنية.

ذكر جمهور المفسرين أن "سورة الحجرات مدنية، أي مما نزل بعد الهجرة، وآياتها ثماني عشرة آية، نزلت بعد المجادلة"[٢].

---

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي القدير، وبهامشه نهر الخير على أيسر التفاسير، لأبي بكر جابر الجزائري، ج٣ هامش ص٣٥٤ رقم (١)، دار الحديث، القاهرة، دار العلوم والحكم بالمدينة المنورة، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المؤلف: العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري٤٦٧-٥٣٨هـ)، ٣٤٩/٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ، تفسير البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، ٢١١/٥، دار الفكر، بيروت، إرشاد =

وترتيب نزولها: "الثامنة بعد المائة في ترتيب نزول السور نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم، وكان نزول هذه السورة سنة تسع[١]، وترتيبها في المصحف التاسعة والأربعون.

ذكر الإمام جلال الدين السيوطي أنها مدنية[٢]، وقال في موضع آخر: "حُكِيَ قول شاذ إنها مكية"[٣].

وقد عقد السيوطي فصلاً أسماه: (في ذكر ما استثنى من المكي والمدني)[٤]، ولم يذكر أي من آيات سورة الحجرات ضمن هذا الفصل.

فالسورة مدنية باتفاق أهل التأويل، والحديث عن المعاملات من سمات النظم القرآني في السور المدنية وهذا مما يقتضيه الحال.

ثانياً: سر تسمية السورة.

ذكر السيوطي أن تسمية السورة كانت بتوقيف من النبي (صلى الله عليه وسلم) حيث قال: "وقد ثبت أن جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار"[٥]، وقد أورد السيوطي فصلاً – في كتابه الإتقان– استهله بقوله: "قد

=

العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، ١١٥/٨، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(١) التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، ٢١٣/٢٦، الدار التونسية للنشر، تونس.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: أحمد بن علي، ٥٢/١، دار الحديث، القاهرة١٤٢٧هـ– ٢٠٠٦م.

(٣) الإتقان للسيوطي ٥٩/١.

(٤) الإتقان للسيوطي ٦٤/١–٧٣.

(٥) الإتقان ١٧٣/١.

يكون للسورة اسم واحد وهو كثير، وقد يكون لها اسمان فأكثر من ذلك"[١]، ولم يذكر اسماً آخر لسورة الحجرات، وكان له الفضل في جمع أسماء أخرى للعديد من سور القرآن الكريم في كتابه الإتقان، حيث قال: "فهذا ما وقفت عليه من أسمائها، ولم تجتمع في كتاب قبل هذا"[٢]، يعني أسماء سور القرآن، وكان حريصاً على توثيق كثير منها من السنة والآثار.

و"سورة الحجرات سميت في جميع المصاحف وكتب السنة والتفسير سورة الحجرات، وليس لها اسم غيره"[٣] إلا أن أحد المفسرين المتأخرين رأى أن يسميها: (سورة الآداب) أو (سورة الأخلاق)، فقال:

"هذه السورة الكريمة التي لا تتجاوز ثمان عشرة آية، قد جمعت الفضائل والآداب الإنسانية، فلا عجب أن تسمى سورة الآداب أو سورة الأخلاق، فهي تتناول الأدب مع الله، والأدب مع الرسول، والأدب مع النفس، والأدب مع المؤمنين، والأدب مع الناس عامة، وكلها بهذا الشكل الرتيب"[٤]، لكنه لم يوثق هذه التسمية التي أوردها كما كان يفعل الإمام السيوطي.

وقد تبع السيوطي في رأيه رأي الزركشي، الذي رجح أن أسماء السور أمر توقيفي، واستبعد أن يستطيع المرء بنفسه استخراج اسم آخر للسورة خلافاً لما ورد عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، يقول:

---

(١) السابق ١/١٧٣-١٨٣.
(٢) السابق ١/١٧٧.
(٣) التحرير والتنوير ٢٦/٢١٣.
(٤) آيات الأحكام من القرآن، تأليف الشيخ محمد علي الصابوني، ٢/٣٤٤، ط١، ١٤٢٨-٢٠٠٧م.

"وينبغي البحث عن تعداد الأسامي: هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات؟ فإن كان الثاني فلن يعدم الفَطِن أن يستخرج من كل سورة معانيَ كثيرة تقتضي اشتقاق أسمائها، وهو بعيد"(١).

ومما يروق لذائقة المؤمن في هذا الشأن قول أحد الأساتذة المعاصرين: "وتسمية السور إنما هو بتوقيف من النبي (صلى الله عليه وسلم) على حسب ما تعلمه من أمين الوحي، على ما ذكره السيوطي ...، ومع ذلك فإن لنا أن نجتهد في البحث عن الأسرار التي وراء هذا التوقيف، ومعرفة الحكمة منه؛ لأن البحث عن ذلك وأمثاله نهج إسلامي لمسناه في كل العلوم التي ازدهرت في أحضان هذا الدين، وقد تظهر الحكمة وقد تخفى، ولكن لكل مجتهد نصيب"(٢).

فقد أشار إلى إتاحة الدين الإسلامي الفرصة للتفكير والحث على إعمال العقل، فإذا كانت تسمية السور توقيفية، فما على المتدبر والمتأمل سوى الكشف عن الأسرار التي وراء هذا التوقيف، مع الحفاظ على الثوابت باتباع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما ورد عنه.

وبالنسبة لسورة الحجرات فقد ذكر المفسرون أن "وجه تسميتها: أنها ذكر فيها لفظ الحجرات"(٣)؛ حيث ذكرت أولاً: التأدب مع رسول الله (صلى الله

---

(١) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى : ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ٢٧٠/١، دار إحياء الكتب العربية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة : الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م، الإتقان ١٨٢/١.

(٢) من عطاء نظم القرآن الكريم (دراسة تحليلية لسورة الأنبياء)، الدكتور/ عبد الحميد محمد العيسوي، ٩، مطبعة أبناء وهبة حسان، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

(٣) التحرير والتنوير ٢١٣/٢٦.

عليه وسلم)، ثم خص النظم القرآني الخطاب للنبي بالحديث عمن ينادونه من وراء الحجرات، والقرآن الكريم بنظمه المعجز ورسالته العالمية قد زود المؤمنين بالآداب التي يجب اتباعها في كثير من السور لكن هذا الحدث وحده – النداء من وراء الحجرات– وهذا اللفظ بعينه (الحجرات) من المعجم اللفظي الخاص بهذه السورة الكريمة، فرجح ذلك تسميتها بهذا الاسم، والله أعلم.

ثالثاً: المقاصد والغرض العام من السورة الكريمة:

في سورة الحجرات تبينت كثير من معالم المجتمع الإسلامي، ويمكن من خلال آيات سورة الحجرات استنباط القواعد والآداب الأخلاقية لتربية أفراد المجتمع الإسلامي والمعينة على ضبط السلوك النفسي والسلوك الاجتماعي.

قال البقاعي: "إن معرفة مناسبات الآيات في جميع القرآن، مترتبة على معرفة الغرض أو الأغراض التي سيقت لها السورة"(١).

يقول د. محمد أبو موسى: "وليس فينا من يشك في أن معرفة المعنى الأم الذي تدور حوله السورة هو من أهم ما يجب أن يعرف؛ لأنه يتأسس عليه معنى هو جوهر التفسير، وهو معرفة كيف تفرعت هذه المعاني الجزئية المكونة للسورة من هذا المعنى الأم، وكيف ترتبت عليه، وكيف ترتب بعضها على بعض"(٢).

وقد اشتملت سورة الحجرات على مقصد عام هو الآداب التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون، وهي آداب تعود بالنفع على نفسية المؤمن ومجتمعه،

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، المؤلف : برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ١٧/١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

(٢) آل حم (غافر – فصلت) دراسة في أسرار البيان، د. محمد محمد أبو موسى، ١٣، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٣٠هـ–٢٠٠٩م.

وقد ذكر كثير من علماء التفسير –في ثنايا تفاسيرهم للسورة– أن المعنى الرئيس الذي دارت حوله سورة الحجرات هو الآداب الاجتماعية.

وقد توغلت طبيعة هذا المقصد في نظم السورة الكريمة، فاندرجت تحت هذا المقصد العام أغراض جزئية، وتحديد الأغراض الجزئية والموضوعات المنبثقة من المقصد العام أمر يساعد في فهم وتتبع حركة المعنى في السورة.

"ومن طرائق التعرف على المعنى... حصر الموضوعات التي وقعت في السورة ولم تقع في سواها واستكشاف علاقتها بالهدف والمقصد"[(١)]، وهذه الموضوعات أو المعاني يمكن حصرها على النحو التالي:

١– الاحتكام إلى مصدري التشريع.

٢– توقير رسول الإسلام.

٣– المنهج الصحيح في تلقي الأخبار.

٤– الإرشاد إلى حل المشكلات، ويشمل:

– قتال الفئة الباغية، وأداء الحقوق.

– اتساع دائرة الانتماء في المجتمع الإسلامي.

– تعميق وتوثيق الأخوة الإيمانية.

٥– التواصل الاجتماعي تحت راية التقوى.

٦– إحسان العمل وإتقانه.

٧– صدق الإيمان والثبات عليه.

٨– الرقابة الدائمة من الله (عزوجل) للمؤمنين.

---

(١) حركة المعنى في سورة الفجر (دراسة بلاغية)، د. إبراهيم صلاح الهدهد، ١٢ بتصرف، مكتبة الإيمان، مكتبة الجامعة الأزهرية، ١٩٩٨م.

وعن تناسق المعاني وتلاحمها في سور القرآن الكريم، يقول د.محمد عبد الله دراز: "أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حشيت حشواً، وأوزاعاً من المباني جمعت عفواً، فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية، على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة فيها فروع تقتصر أو تطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد، قد وضح رسمه مرة واحدة، ولماذا نقول إن هذه المعاني تتسق في السورة كما تتسق الحجرات في البنيان؟ لا بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان.. ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية"[١]

ويتضح من خلال الأغراض الجزئية التي أمكن استنباطها تناسب معانيها مع المقصد العام للسورة، "لا بد إذن من سلك واحد ينتظم آيات السورة الواحدة، وتسعى آيات السورة كلها نحو هذا المقصد وذلك المعنى على نسيج متقن، وترتيب محكم وتأمل أسرار التراكيب وأحوالها هو المعبر إلى ذلك"[٢].

(١) النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن الكريم)، د. محمد عبد الله دراز، ١٥٤-١٥٥
(٢) حركة المعنى في سورة الفجر ١١.

رابعاً: مناسبة السورة لما قبلها

قال الإمام السيوطي: "علم المناسبة علم شريف قل اعتناء المفسرين به؛ لدقته، وممن أكثر فيه الإمام فخر الدين، وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"(١).

سورة الفتح، هي السورة السابقة على سورة الحجرات حسب ترتيب المصحف، ومما يبين تناسب خواتيم الفتح مع سورة الحجرات: ما جاء في الآية الكريمة الأولى من سورة الحجرات من أن الله تعالى أراد تنبيه المؤمنين وإرشادهم إلى وجوب التأدب مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفي أواخر سورة الفتح يقول الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩]، والخطاب في سورة الحجرات للمؤمنين الذين كانوا معه (صلى الله عليه وسلم) ولمن جاؤوا بعدهم، كذلك يقول تعالى في سورة الفتح: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، وفي سورة الحجرات يقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ عن أولئك المتأدبين مع رسول الله ممن يغضون أصواتهم عنده، وبهذا يظهر التناسب والترابط التام بين سورة الحجرات وما قبلها.

وفي بيان حسن ترتيب السور ذكر الإمام الرازي عدة وجوه:

"**أحدها:** أن في السورة المتقدمة لما جرى منهم ميل إلى الامتناع مما أجاز النبي (ﷺ) من الصلح وترك آية التسمية والرسالة وألزمهم كلمة التقوى كأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال لهم على سبيل العموم: لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ولا تتجاوزوا ما يأمر الله تعالى ورسوله.

---

(١) الإتقان ٣/٣٦٩.

الثاني: هو أن الله تعالى لما بيّن محل النبي (عليه الصلاة والسلام) وعلو درجته بكونه رسوله الذي يظهر دينه وذكره بأنه رحيم بالمؤمنين بقوله: ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] قال: لا تتركوا من احترامه شيئاً لا بالفعل ولا بالقول ولا تغتروا برأفته وانظروا إلى رفعة درجته.

الثالث: هو أن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم أشداء ورحماء فيما بينهم راكعين ساجدين نظراً إلى جانب الله تعالى وذكر أن لهم من الحرمة عند الله ما أورثهم حسن الثناء في الكتب المتقدمة بقوله: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الإنجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩] فإن الملك العظيم لا يذكر أحداً في غيبته إلا إذا كان عنده محترماً ووعدهم بالأجر العظيم فقال في هذه السورة: لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجتكم وإحباط حسناتكم"(١)

وقال أبو حيان في البحر المحيط: "ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة؛ لأنه ذكر رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) وأصحابه، ثم قال : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ [الفتح: ٢٩]، فربما صدر من المؤمن عامل الصالحات بعض شيء مما ينبغي أن ينهى عنه، فقال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾"(٢).

وذكر السيوطي في مناسبة السورة الكريمة لما قبلها أنه "لايخفى تآخي هاتين السورتين: الفتح والحجرات مع ما قبلهما؛ لكونهما مدنيتين ومشتملتين على أحكام فتلك فيها قتال الكفار وهذه فيها قتال البغاة، وتلك ختمت بالذين

---

(١) مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، ٢٨/ ٩٥، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م.

(٢) تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (القرن الثامن)، تحقيق: صدقي محمد جميل، ٥٠٦/٩، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ.

آمنوا وهذه افتتحت بالذين آمنوا، وتلك تضمنت تشريفاً له (ﷺ) خصوصاً مطلعها وهذه أيضاً في مطلعها أنواع من التشريف له(ﷺ)"[(١)].

كما يلاحظ وجود ترابط بين سورة الحجرات والسورة بعدها :

في سورة الحجرات بعد تكذيب دعوى الأعراب والكشف عن حقيقة أمرهم، وهي أنهم في حقيقة الأمر مسلمون لا مؤمنون ثم بيان حقيقة الإيمان الصادق، تلا ذلك بيان الرقابة الدائمة من الله (عزوجل) للمؤمنين، ومن ثم جاءت سورة (ق) لتبين حال من لم يرعو ولم يرتدع ولم يتق الله في شؤون حياته بعد أن علم بالرقابة المستمرة من رب العالمين له، فتحدثت سورة ق في مفتتحها عن الكافرين ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾[ق:٢].

خامساً: أسباب النزول:

من الملاحظ – بالاطلاع على كتب التفاسير– كثرة أسباب النزول في سورة الحجرات إذ وردت مناسبات عدة لمعظم آياتها، والسورة الكريمة وإن تعددت أسباب النزول فيها فقد رسخت للمجتمع آداب ووضعت ضوابط للتعامل وحسن السلوك، ومن ثم فربما كان تعدد المناسبات لتعدد الأحوال والأسباب.

(١) أسرار ترتيب القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، ١٣٢، دار الاعتصام – القاهرة، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ٢٨٤/١٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ.

ولهذه الأسباب عمدت هذه الدراسة البلاغية إلى بيان إعجاز القرآن الكريم في ضبط سلوكيات المجتمع ووضع حدود التعامل مع الله ورسوله، ومع الناس، ومع النفس، وفيما يلي عرض لبعض[١] أسباب النزول[٢]:

١-قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا﴾ الآيتين أخرج البخاري[٣] وغيره من طريق ابن جريج عن ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي وقال عمر ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾.

٢- قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية.

نزلت في ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وقر، وكان جهورى الصوت، وكان إذا كلم إنساناً جهر بصوته، فربما كان يكلم رسول الله (صلى

---

(١) فقد عزفت عن الروايات الضعيفة، وأثبت الروايات الصحيحة الواردة في الصحيحين، وتلك الروايات التي لم أجدها في الصحيحين اخترت منها ما قد حُكم عليها بالصحة من كتب السنن.

(٢) أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، ٢٥٧ - ٢٦٦، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، لباب النقول في أسباب النزول، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى : ٩١١هـ)، ضبطه وصححه : الأستاذ أحمد عبد الشافي، ١٧٨- ١٨٣ بتصرف، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.

(٣) صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله – صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه)، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ١٦٨/٥، حديث رقم: (٤٣٦٧)، دار طوق النجاة، ط١ ، ١٤٢٢هـ.

الله عليه وسلم) فيتأذى بصوته، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ... قال ثابت عن أنس: لما نزلت هذه الآية – ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾– قال ثابت بن قيس: أنا الذي كنت أرفع صوتي فوق صوت النبي وأنا من أهل النار، فذكر ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فقال: هو من أهل الجنة رواه مسلم(١). وقال ابن الزبير(٢): فما كان عمر يسمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد هذه الآية حتى يستفهمه.

٣–" قال عطاء عن ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ تألى أبو بكر أن لا يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كأخى السرار، وعن أبي بكر قال: لما نزلت على النبي (صلى الله عليه وسلم): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ فآليت على نفسي أن لا أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كأخى السرار "(٣).

٤–قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ "قال محمد بن إسحاق(٤) وغيره: نزلت في جفاة بني تميم، قدم وفد منهم على

---

(١) صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، ١١٠/١، حديث رقم: (١١٩)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي– بيروت.

(٢) صحيح البخاري ٩٧/٩، حديث رقم : (٧٣٠٢).

(٣) "وقوله فما كان يكلمه إلا كأخي السرار هي النجوى". مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المالكي، ٢١٢/٢، المكتبة العتيقة ودار التراث.

(٤) سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض (جـ ٤، ٥)، ٣٨٧/٥، =

النبي (صلى الله عليه وسلم) فدخلوا المسجد، فنادوا النبي (صلى الله عليه وسلم) من وراء حجرته أن اخرج إلينا يا محمد، فإن مدحنا زين وإن ذمنا شين، فأذى ذلك من صياحهم النبي، فخرج إليهم، فقالوا: إنا جئناك يا محمد نفاخرك، ونزلت فيهم الآية، وكان فيهم الأقرع بن حابس وعيينة ابن حصن والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم.

٥-قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ الآية.

"نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط بعثه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلي بني المصطلق مصدقاً، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمع القوم تلقوه تعظيماُ لله تعالى ولرسوله فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم، فرجع من الطريق إلى رسول الله وقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي، فغضب رسول الله وهم أن يغزوهم، فبلغ القوم رجوعه، فأتوا رسول الله وقالوا: سمعنا برسولك، فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلنا من حق الله تعالى، فبدا له في الرجوع، فخشينا أن يكون إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك بغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فأنزل الله تعالى الآية، يعني في الوليد بن عقبة[1].

٦-قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ الآية.

=

(٣٢٦٧)، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م.

(١) السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، ٩٣/٩، حديث رقم: (١٧٩٧٥)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان،الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م.

حكى النيسابوري عن طائفة عن معتمر بن سليمان قال: سمعت أبي يحدث عن أنس قال: يا نبي الله لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) فركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة فلما أتاه النبي قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: لحمار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه، وغضب لكل واحد منهما أصحابه، وكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم – ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ – رواه البخاري عن مسدد[١]، ورواه مسلم عن محمد بن عبد الأعلى[٢]، كلاهما عن المعتمر.

* * *

(١) متفق عليه: صحيح البخاري ١٨٣/٣، حديث رقم : (٢٦٩١).
(٢) صحيح مسلم ١٤٢٤/٣، حديث رقم : (١٧٩٩).

المبحث الأول

تحليل النظم في سورة الحجرات

حددت الآيات في سورة الحجرات كثيراً من معالم المجتمع الإسلامي، ويمكن من خلال السورة الكريمة استنباط القواعد والآداب الأخلاقية لتربية أفراد المجتمع الإسلامي وضبط السلوك الاجتماعي.

"وإنما غاية النظر في كلام الله هو استكشاف غوامض الدلالة لمعرفة مراد الحق من كلامه سبحانه، ولمعرفة أسرار بيانه الذي أعجز به خلقه وجعله آية نبيه صلوات الله وسلامه عليه"(١).

وأول ما عقب به ابن كثير على هذه السورة الكريمة، قوله: "هذه آداب أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول (صلى الله عليه وسلم) من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام"(٢).

ومن أجل الكشف عن بلاغة النظم، والتعرف على الخصائص الأسلوبية لسورة الحجرات، وسعياً لاستنباط الآداب الاجتماعية التي أرشدنا إليها الحق (تبارك وتعالى) من خلال السورة الكريمة، تبين أنه من النافع تقسيم الآيات في السورة الكريمة إلى أفكار مستمدة منها، تمثل المقصد العام والأغراض الجزئية التي اشتملت عليها السورة، وفيما يلي مساهمة للكشف عن بلاغة النظم المعبر عن كل معنى من هذه المعاني.

---

(١) آل حم (غافر – فصلت) دراسة في أسرار البيان ١٣ .

(٢) مختصر تفسير القرآن العظيم المسمى: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، اختصار وتحقيق: أحمد محمود شاكر، أتمه: أنور الباز، المجلد الثالث ص٣١٢، دار الوفاء، الطبعة العاشرة، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.

أولاً: الاحتكام إلى مصدري التشريع.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١)﴾

تبين هذه الآيات آداب التعامل مع الله ورسوله فينبغي على المؤمن ألا يتجاوز أوامر الشرع ونواهيه.

وافتتحت سورة الحجرات بنداء المؤمنين، "فقال جل وعلا تعليماً للمؤمنين وتهذيباً لهم: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾"[١].

وهذه الآية الكريمة رأس السورة ، وجامعة لكل ما فيها، "ولذلك تستطيع أن تجد إشارات كثيرة مرسلة منها إلى أغراض أساسية في السورة "[٢].

والخطاب بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ﴾: خطاب مدح[٣]، "وتصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن ما فى حيزه أمر خطير يستدعى مزيد اعتنائهم بشأنه وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته"[٤]، ووصفهم بالمؤمنين دليل عناية الله تعالى بالمخاطبين، ولا شك أن هذا النداء فيه تشويق للتقرب

---

(١) روح المعاني ٢٨٤/١٣.

(٢) آل حم (غافر – فصلت) دراسة في أسرار البيان ٣٢.

(٣) و"المدح هو: الثناء باللسان على الجميل الاختياري قصداً، أو الثناء باللسان على الصفات الجميلة خلقية كانت أو اختيارية، وهو أعم من الحمد". التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق : إبراهيم الأبياري، باب الميم ص ٢٦٥، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت:١٠٣١هـ)، باب: الميم، فصل: الدال، ٣٠١، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٣١/٢٦

وترغيب في الاستجابة، وفي هذا يقول أبو السعود: "ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع للمحافظة عليه ورادع عن الإخلال به"(١).

والنداء وإن كان بدايةً لمن أخطأوا في حق النبي (صلى الله عليه وسلم) إلا أنه مع ذلك نداء للأمة، وبيان للمكلفين بأن ما خوطبوا به من مقتضيات الإيمان، يقول السيوطي عن فواتح سور القرآن إن "النداء في عشر سور، خمس بنداء الرسول (صلى الله عليه وسلم): الأحزاب، والطلاق، والتحريم، والمزمل، والمدثر، وخمس بنداء الأمة: النساء، والمائدة، والحج، والحجرات، والممتحنة"(٢)، وكون النداء للأمة فهذا دليل على صلاحية الثوابت (القرآن والسنة) لكل زمان ومكان، كذلك يقول الفخر الرازي – عند حديثه عن سبب نزول الآية–: "والأصح أنه إرشاد عام يشمل الكل ومنع مطلق يدخل فيه كل إثبات وتقدم واستبداد بالأمر وإقدام على فعل غير ضروري من غير مشاورة"(٣).

ومطلوب النداء جملة: ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾، وهو أسلوب إنشائي آخر (النهي) قصد به التحذير، وعلل ابن عاشور هذا المعنى بأنه "لم يسبق صدور فعل من أحد افتياتاً على الشرع"(٤).

وحذف المسند إليه (المفعول)؛ لإفادة العموم، " أي: لا تقدموا القول والفعل بين يدي اللّه ورسوله"(٥).

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٣١/٢٦.
(٢) روح المعاني ٢٨٤/١٣.
(٣) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٩٥.
(٤) التحرير والتنوير ٢١٣/٢٦.
(٥) معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى : ٥١٠هـ)، تحقيق: =

وذكر أهل القرآن في حذف المفعول من قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ وجهان[١]:

أحدهما: أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدم وليذهب الوهم إلى كل ما يمكن.

الثاني: ليس لهذا الفعل مفعول، فمعنى (لا تقدموا) لا تتقدموا، وحينئذ يكون المقصود: نفي التقديم رأساً.

" وكانت عادة العرب، وهي إلى الآن الاشتراك في الآراء، وأن يتكلم كل بما شاء ويفعل ما أحب، فجرى من بعض من لم يتمرن على آداب الشريعة بعض ذلك. قال قتادة: فربما قال قوم: ينبغي أن يكون كذا لو أنزل في كذا. وقال الحسن: ذبح قوم ضحايا قبل النبي (صلى اللّه عليه وسلم)، وفعل قوم في بعض غزواته شيئاً بآرائهم، فنزلت هذه الآية ناهية عن جميع ذلك"[٢].

ومن لطائف النظم وبلاغته أن قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، استعارة تمثيلية حيث شبّه حال الذين يقدمون آراءهم على حكم الله ورسوله، بهيئة من تقدم للسير أمام حاكم أو قائد، وكان عليه أن يسير خلفه تأدباً وتوقيراً.

=

عبدالرزاق المهدي، ٢٥١/٤ ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة : الأولى، ١٤٢٠هـ.

(١) الكشاف ٣٤٩/٤، تفسير البيضاوي ٢١١/٥، التحرير والتنوير ٢١٥/٢٦.

(٢) تفسير البحر المحيط ٥٠٦/٩.

يقول ابن عاشور: "والتركيب تمثيل بتشبيه حال من يفعل فِعلاً دون إذن من الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) بحال من يتقدم مُمَاشيه في مشيه ويتركه خلفه. ووجه الشبه: الانفراد عنه في الطريق"(١).

ولعل قوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ من قبيل المجاز المرسل وعلاقته المجاورة، يقول الزمخشري: "فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين للقرب منهما توسعاً، كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره وداناه في غير موضع، وقد جرت هذه العبارة هاهنا على سنن ضرب من المجاز، وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلاً. ولجريها هكذا فائدة جليلة ليست في الكلام العريان : وهي تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة"(٢).

"وجُمِع بين الله ورسوله؛ "للتنبيه على أن مراد الله إنما يُعرف من قِبل الرسول (صلى الله عليه وسلم)" (٣).

"وذكر لفظ الجلالة للإشارة إلى أن الرسول من الله بمكان عظيم، وهذه عادة في لغتهم، يذكرون المعطوف عليه وهو غير مراد بالحكم، ليشير بذلك إلى عظيم الصلة، وقوة العلاقة بين المعطوف والمعطوف عليه... أي: لا تقدموا بين يدي رسول الله"(٤).

وعُطف على مطلوب النداء بجملة: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ من قبيل التعميم بعد التخصيص؛ لأن النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله داخل في جملة

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٣/٢٦.
(٢) الكشاف ٣٤٩/٤.
(٣) التحرير والتنوير ٢١٦/٢٦ .
(٤) من أسرار التعبير القرآني (دراسة تحليلية لسورة الأحزاب) د.محمد محمد أبو موسى، ٣٢٦، ٣٢٧ بتصرف، مكتبة وهبة، ط٣، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

الأمر بتقوى الله، بمعنى أن التقدم بين يدي الله ورسوله مخالف للتقوى، وفي اقتران النداء بالأمر والنهي تأكيد على خطورة الإقدام على ما يحذرهم منه، والمراد: "واتقوا الله في التقديم أو مخالفة الحكم"(١).

عبر بالاسم الظاهر، وهو لفظ الجلالة (الله)، ولم يقل: (واتقوه)؛ "لتربية المهابة والروعة في النفس"(٢)، وحري بالنفس المؤمنة إذا سمعت تحذيراً من رب العالمين أن تتصاع وتطيع.

وجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ جملة استئنافية تعليلية مؤكدة بإن، عللت نهي المؤمنين عن التقديم بين يدي الله ورسوله كما عللت أمرهم بتقوى الله، والجملة "كناية عن التحذير من المخالفة"(٣)، والفاصلة مناسبة للمعنى، ويلاحظ ان فاصلة النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله والأمر بالتقوى ذكرت صفتي السمع والعلم، ووجه المناسبة: أن السمع والعلم من صفات الله تعالى، فقوله: (سميع) أي: يسمع أصواتكم، وقوله: (عليم) أي: يعلم ما في مكنون صدوركم، يقول البيضاوي: "إن الله سميع لأقوالكم، عليم بأفعالكم"(٤)، والعليم "يعني: العليم بالكليات والجزئيات وبكل ما هو كائن وبكل ما سيكون لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ..... وعلم الله الذي هذا شأنه يسري في الكون كله، وفي القرآن كله وفي الزمان كله وفي المكان كله وفيما قبل الزمان والمكان"(٥).

---

(١) تفسير البيضاوي ٥/٢١١.

(٢) من علوم القرآن وتحليل نصوصه، د. عبد القادر حسين، ١٨٤، دار قطري بن الفجاءة، قطر.

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/٢١٩.

(٤) تفسير البيضاوي ٥/٢١١.

(٥) آل حم (غافر – فصلت) دراسة في أسرار البيان ٢٠ .

وفي اقتران السميع بالعليم والجمع بين هاتين الصفتين دفاع عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصون لحرمته، وتحذير وترهيب وحث على ضبط السلوك باطناً وظاهراً، فهو السميع يسمع ما تبدون، ويعلم ما تخفي الصدور.

وفي تكرر لفظ الجلالة (الله) في الآية الأولى ثلاث مرات؛ تأكيداً على أهمية ما يدعوهم إليه سبحانه، "ولفظ الجلالة جامع لكل ما في أسماء الله الحسنى، جامع لكل الكمالات المطلقة التي نراها في العزيز والعليم والقادر والباسط والسميع والبصير والغفور والرحيم إلى آخره"(١).

"ومن هنا فواجب المسلم أن لا يقول ولا يعمل ولا يقضي ولا يفتي برأيه إلا إذا علم قول الله ورسوله وحكمهما، وبعد أن يكون قد علم أكثر أقوال الله والرسول وأحكامهما، فإذا لم يجد من ذلك شيئاً اجتهد فقال أو عمل بما يراه أقرب إلى رضا الله (تعالى)، فإذا لاح له بعد ذلك نص من كتاب أو سنة عدل عن رأيه، وقال بالكتاب والسنة، هذا ما دلت عليه الآية الأولى"(٢).

إن أول بند من بنود الخطة الإصلاحية هو الإيمان، والإيمان يقتضي طاعة الله ورسوله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران: ٣١]، كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[الحشر:٧].

ثانياً: توقير رسول الإسلام

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ(٢) إِنَّ

(١) السابق ٢٠ .
(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير٣/٣٥٥.

الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾.

الآيات تنبه إلى عظمة النبي (صلى الله عليه وسلم) وترشد المؤمنين إلى توقير مكانته، يقول ابن كثير: "هذا أدب ثان أدب الله به المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي فوق صوته"(١)، فهو (صلى الله عليه وسلم) القدوة الطيبة لكل مسلم، والمثل الأعلى الذي يحاكيه في سلوكه وينهج نهجه ويقتدي به.

وتأتي الآية الثانية – من سورة الحجرات– مستأنفة مفصولة موضحة للآية الأولى، والفصل بين الجمل "مظهر من مظاهر نشأة المعاني بعضها من بعض وتمهيد بعضها لبعض حتى كأن الجملة الثانية تتولد عن الجملة الأولى، وكأن الأولى مهاد للثانية"(٢).

والآية "شروع فى النهى عن التجاوز فى كيفية القول عند النبى (عليه الصلاة و السلام) بعد النهى عن التجاوز فى نفس القول والفعل"(٣).

و"إعادة النداء عليهم: للاهتمام بهذا الغرض والإشعار بأنه غرض جدير بالتنبيه عليه بخصوصه حتى لا ينغمر في الغرض الأول واستدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتطرية الإنصات لكل حكم نازل،

---

(١) مختصر تفسير القرآن العظيم المسمى: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ٣١٢/٣.

(٢) من أسرار التعبير القرآني ٦٥.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١١٥/٨.

للمبالغة فى الإيقاظ والتنبيه والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه، وتحريك منهم لئلا يفتروا ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) من الأدب الذي إذا حافظوا عليه عاد عليهم بعظيم النفع في دينهم، وذلك لأنّ في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به"[(١)].

"والمراد بقوله: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدّ الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عالياً لكلامكم، وجهره باهراً لجهركم، حتى تكون مزيته عليكم لائحة، وسابقته واضحة[(٢)].

وقوله: ﴿لا تَرْفَعُوا﴾ أسلوب إنشائي (نهي)، وهذا النهي ليس على حقيقته بل يستنبط منه المؤمن معنى مجازياً هو: التأدب مع رسول الله (ﷺ) في وجوده وفي غيابه، كما يستنبط منه التأدب في معاملة العلماء، "وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره – عليه السلام– وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفاً لهم إذ هم ورثة الأنبياء"[(٣)].

يقول الألوسي (رحمه الله) في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾: "وفي أحكام القرآن للسيوطي أن هذا

(١) الكشاف٤/٣٥١، إرشاد العقل السليم ١١٥/٨، التحرير والتنوير ٢١٩/٢٦.
(٢) الكشاف٤/٣٥٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، ٢٥٧/١٦، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

النهي تحريم ندائه (صلى الله عليه وسلم) باسمه، والظاهر استمرار ذلك بعد وفاته إلى الآن"[١].

وحقيقة الرفع أنه "يقال تارة في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرها... قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[الرعد:٢]، وتارة في البناء إذا طولته نحو قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾[البقرة:١٢٧]...، وتارة في المنزلة إذا شرفتها نحو قوله: ﴿... نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾[يوسف:٧٦]"[٢].

وقد جاء الأسلوب بطريق الاستعارة حيث إن "الرفع: مستعار لجهر الصوت جهراً متجاوزاً لمعتاد الكلام، شبه جهر الصوت بإعلاء الجسم في أنه أشد بلوغاً إلى الأسماع كما أن إعلاء الجسم أوضح له في الإبصار، على طريقة الاستعارة المكنية"[٣]، حيث حذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه (الرفع) وقد رشحت الاستعارة بما يلائم المشبه به، وهو لفظ: (فوق)، ويصح أن تكون الاستعارة تبعية في الفعل، فالرفع يكون لإعلاء الجسم، والجهر: "يقال لظهور الشيء بإفراط حاسة البصر أو حاسة السمع"[٤]، ويكون المعنى: "شبه إلقاء الكلام بجهر قوي بإلقائه من مكان

(١) روح المعاني ٢٢٥/١٨.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم، ٤١٠/١، دار القلم، دمشق.
(٣) التحرير والتنوير ٢١٩/٢٦.
(٤) مفردات ألفاظ القرآن ١٩٩/١.

مرتفع كالمئذنة"[١]، فالجامع بينهما العلو وشدة الوضوح، وهو معنى داخل في مفهوم الطرفين[٢].

قال الزركشي: "والحق أن المعنى [مستعار له] يعار أولاً، ثم بواسطته يعار اللفظ [مستعار منه]، ولا تحسن الاستعارة إلا حيث كان الشبه مقرراً بينهما ظاهراً"[٣]، وما من نظم أبلغ من كلام الله تعالى، فـ"الجهر عموم الإظهار والمبالغة فيه...، وأصله رفع الصوت، يقال: جهر بالقراءة إذا رفع صوته بها...، وصوت جهير رفيع الصوت، ولهذا يتعدى بالباء، فيقال: جهرت به كما تقول رفع صوته به؛ لأنه في معناه"[٤]، وتكمن بلاغة الاستعارة في قوة التأثير وبلاغة التعبير.

وخص الصوت بالنهي دون النطق والكلام؛ "لكونه أعم من النطق والكلام، ويجوز أنه خصه؛ لأن المكروه رفع الصوت فوقه، لا رفع الكلام"[٥].

و﴿فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ جملة حالية إذ وقعت "موقع الحال من أصواتكم"[٦].

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٩/٢٦.

(٢) والاستعارة باعتبار الجامع قسمان: أحدهما: ما يكون الجامع فيه داخلاً في مفهوم الطرفين...، والثاني: ما يكون الجامع فيه غير داخل في مفهوم الطرفين". الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، تأليف: الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)، ٢٧٢ بتصرف، دار إحياء العلوم – بيروت، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٨م.

(٣) البرهان في علوم القرآن ٤٥٣/٤.

(٤) الفروق اللغوية ٢٨٦.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن، كتاب: (الصاد)، مادة: (صوت)، ٥٩٧/١.

(٦) التحرير والتنوير ٢٢٠/٢٦.

وصف الله تعالي نبيه في سورة الحجرات بالرسول والنبي معاً، وكلا اللفظين مناسب للمقام ومقتضى الحال، واجتهد العلماء في تحديد الفرق بين النبوة والرسالة، وأشهر الأقوال في الفرق بينهما: أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، قال شارح العقيدة الطحاوية: "وقد ذكروا فروقاً بين النبي والرسول، وأحسنها: أن من نبأه الله بخبر السماء، إن أمره أن يبلغ غيره، فهو نبي رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره، فهو نبي وليس برسول. فالرسول أخص من النبي، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل، فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس. فالرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها"(١).

والحال في الآية الأولى من سورة الحجرات: أن الله تعالى يدعو المؤمنين إلى اتباع حكم الله ورسوله المأمور بتبليغهم ما أوحي إليه، بينما الحال في هذه الآية اختصاص الكلام بشخص النبي الموحى إليه والذي يجب على المؤمنين أن يقدروه حق تقديره إذ يوحى إليه من قبل رب العباد سواء كان مأموراً بتبليغهم أم لا، والله أعلم، وبهذا يتناسب المعجم اللفظي للسورة مع الأحوال ومقتضياتها.

قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ**﴾

والجهر له (صلى الله عليه وسلم) بالقول يعني: "لا تتعمدوا في مخاطبته القول اللين المقرّب من الهمس الذي يضادّ الجهر، كما تكون مخاطبة

(١) شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، المؤلف : ابن أبي العز الحنفي، المحقق : أحمد محمد شاكر، ٨٢، الناشر : وكالة الطباعة والترجمة في الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

المهيب المعظم، عاملين بقوله عز اسمه: ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾، وقيل معنى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ لا تقولوا له: يا محمد، يا أحمد، وخاطبوه يا نبي الله، ويا رسول الله، يا أبا القاسم، توقيراً له"[١].

و"صوت جهير رفيع الصوت، ولهذا يتعدى بالباء، فيقال: جهرت به كما تقول: رفع صوته به؛ لأنه في معناه، وهو في غير ذلك استعارة"[٢]، وذكر أبو هلال العسكري: أن "كل اسمين يجريان على معنى من المعاني وعين من الأعيان في لغة واحدة فإن كل واحد مهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر وإلا لكان الثاني فضلاً لا يحتاج إليه...، وعطف الشيء على الشيء وإن كانا يرجعان إلى شيء واحد كان في أحدهما خلاف للآخر فأما إذا أريد بالثاني ما أريد بالأول فعطف أحدهما على الآخر خطأ"[٣]، ولما كان المقصود بالجهر "عموم الإظهار والمبالغة فيه"[٤]، فكأن الخطاب القرآني انتقل من الأدنى إلى الأعلى في سبيل تحذير المخاطبين في ذلك الحين وحث من بعدهم على توقير النبي (صلى الله عليه وسلم).

والجملة عطف على النهي السابق جملة: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾، وصل بالواو بين الجملتين: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ و﴿لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾؛

---

(١) الكشاف ٣٥١/٤، الجامع لأحكام القرآن ٢٥٧/١٦، معاني القرآن ٧٠/٣، أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر، تحقيق : محمد الصادق قمحاوي، ٢٧٧/٥، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ١٤٠٥هـ.

(٢) الفروق اللغوية ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، ٢٨٦، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

(٣) الفروق اللغوية ٢٢.

(٤) السابق٢٨٦.

لما بينهما من توسط بين الكمالين، "ومن محسنات الوصل تناسب الجملتين في الاسمية والفعلية"(١).

وتتجلى روعة هذا الأسلوب الإنشائي في نظم السورة الكريمة بما يدل عليه من حسن التخلص، "وفي هذا النهي ما يشمل صنيع الذين نادوا النبي (صلى الله عليه وسلم) من وراء الحجرات فيكون تخلصاً من المقدمة إلى الغرض المقصود"(٢)، إضافة إلى أنه "يظهر حسن موقع قوله بعده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات:٤]"(٣)، ومن هنا يتضح التناسب وحركة المعنى بين الآيات، "والعلائق بين الآيات في السورة الواحدة تشبه علائق الأغصان والأوراق بالشجرة"(٤).

والنهي عن الجهر مقيد بصفة، هي في قوله تعالى: ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: جهر مثل جهر بعضكم لبعض، والتشبيه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ تشبيه مرسل مجمل حيث ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه، وذكر صاحب الكشاف "أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً، حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة، أعنى: الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوّة وجلالة مقدارها، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها"(١).

---

(١) بغية الإيضاح لتلخيص علوم المفتاح في علوم البلاغة والمعاني والبيان والبديع تأليف عبد المتعال الصعيدي،٣٠٧، مكتبة الآداب، ط١٧، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

(٢) التحرير والتنوير ٢٢١/٢٦.

(٣) التحرير والتنوير ٢٢١/٢٦.

(٤) حركة المعنى في سورة الفجر (دراسة بلاغية) ٩.

(١) الكشاف ٣٥٣/٤، ٣٥٤.

قوله: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ﴾

"حبط: أحبط الله عمل الكافر: أبطله، وقد حبط العمل يحبط، وأصل الحبط من الحبط، وهو أن تكثر الدابة أكلاً حتى ينتفخ بطنها، والإحباط هو إبطال عمل البر من الحسنات بالسيئات"(١).

وجملة: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ﴾ في محل نصب مفعول له، على أن في تعلقه وجهان ذكرهما أهل التأويل:

"أحدهما: أن يتعلق بمعنى النهى، والعامل فيه: ولا تجهروا، فيكون المعنى: انتهوا عما نهيتم عنه لحبوط أعمالكم، أى: خشية حبوطها على تقدير حذف المضاف أو: كراهة أن تحبط، بمعنى: أن الجهر له بالقول يفضي بكم إن لم تكفوا عنه أن تحبط أعمالكم، فحبط الأعمال بذلك ما يحذر منه فجعله مدخولاً للام التعليل مصروف عن ظاهر، فكذا يقدر نحاة البصرة في هذا وأمثاله.

والثاني: أن يتعلق بنفس الفعل، والعامل فيه: (ولا ترفعوا) بتقدير (لا) النافية على مذهب الكوفيين في الاختيار، فيكون التقدير: أن لا تحبط أعمالكم فيكون تعليلا للنهي، على أن النهي عن الفعل المعلل باعتبار التأدية، ويكون المعنى: أنهم نهوا عن الفعل الذي فعلوه لأجل الحبوط؛ لأنه لما كان بصدد الأداء إلى الحبوط جُعل كأنه فعل لأجله، وكأنه العلة والسبب في إيجاده، أعاذنا اللّه من حبط الأعمال وخيبة الآمال"(١).

---

(١) مجمل اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، ١/ ٢٦١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، مفردات ألفاظ القرآن ٢٠٨/١، الفروق اللغوية ٢٣٦.

(١) الكشاف ٣٥٥/٤، تفسير البيضاوي ٢١٢/٥، تفسير البحر المحيط ٥٠٨/٩، التحرير والتنوير ٢٢٠/٢٦، بتصرف.

ومع هذا "فمن حيث المعنى حبوط العمل علة في كل من الرفع والجهر؛ لأن في الجهر والرفع استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحبط وذلك إذ انضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة"(١).

وقوله: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ "فيه مزيد تحذير مما نهوا عنه"(٢)، وحث على التنبه والتيقظ وعدم الغفلة، "وقال ابن عقيل في الفنون ما أخوفني أن أساكن معصية فتكون سبباً في سقوط عملي وسقوط منزلة إن كانت عند الله تعالى بعدما سمعت قوله تعالى: ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾، وهذا يدل على أن في بعض التسبب وسوء الأدب على الشريعة ما يحبط الأعمال، ولا يشعر العامل إلا أنه عصيان ينتهي إلى رتبة الإحباط"(٣)، فيجب التأدب والالتزام بتوقير النبي (صلى الله عليه وسلم) استجابة لله تعالى، وعدم الاستخفاف بهذا الأمر حتى لا يؤدي هذا الاستخفاف إلى عاقبة حبوط الأعمال.

وجملة: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ في محل نصب حال، "أى: والحال أنكم لا تشعرون بحبوطها"(١)، والتعبير بالجملة الحالية ليستكمل المعنى المفهوم من الأساليب السابقة؛ "لأن عدم الانتهاء عن سوء الأدب مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعود النفس بالاسترسال فيه فلا تزال تزداد منه وينقص توقير الرسول (صلى الله عليه وسلم) من النفس وتتولى من سيء إلى أشد منه

(١) تفسير البحر المحيط ٥٠٨/٩، البيضاوي ٢١٢/٥.
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١١٥/٨، التحرير والتنوير ٢٢٢/٢٦.
(٣) الآداب الشرعية، عبد الله بن محمد بن مفلح المقدسي، ٢/ ٣٠٣، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وأحمد القيام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.
(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١١٥/٨.

حتى يؤول إلى عدم الاكتراث بالتأدب معه وذلك كفر"[١]، ويصبح سوء أدبه عادة فيحبط عمله وهو لا يدري.

وجمع المسند إليه (المضاف) : ﴿أَعْمَالُكُمْ﴾ دل على أن المراد من الآية: التحذير من حبط جميع الأعمال.

"وقد دلت الآية على أمرين هائلين:

أحدهما : أن فيما يرتكب من يؤمن من الآثام ما يحبط عمله.

والثاني : أن في آثامه ما لا يدرى أنه محبط، ولعله عند اللّه كذلك، فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالماشى في طريق شائك لا يزال يحترز ويتوقى ويتحفظ"[٢].

والمتأمل لهذه الآية الكريمة يلاحظ اشتمالها على حروف الشِّدَّة، (أصواتكم)، (صوت)، (تجهروا)، (بالقول)، (كجهر) (بعضكم)، (بعض)، (تحبط)، (أعمالكم)، (تشعرون)، وهي بهذا مناسبة للمعنى ومؤداة بأسلوب بلاغي مؤثر– شأنها شأن آي القرآن الكريم كله– فالجهر والشدة يتناسبان مع رفع الصوت كما يتناسبان مع المعنى العام للآية الكريمة من التحذير من رفع الصوت والجهر بالقول عند رسول الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ[١] أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(٣)﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢١/٢٦.

(٢) الكشاف ٣٥٥/٤.

(١) "الغض: النقصان من الطرف، والصوت، وما في الإناء"، "والغَضاضةُ الفُتُورُ في الطرف يقال غَضَّ وأَغْضى إذا دانى بين جفنيه ولم يُلاقِ". مفردات ألفاظ القرآن ١٥٣/٢، لسان العرب مادة (غضض) ، لسان العرب، المؤلف : محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ١٩٦/٧، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى.

بعد أن حذرت الآية السابقة من عاقبة رفع الصوت والجهر به عند رسول الله جاءت هذه الآية الكريمة لتبين الجزاء العظيم الذي ينتظر المتأدبين مع رسول الله، فالآيات الكريمة تتنوع بين ترغيب وترهيب، حسب ما يقتضيه المقام، من أجل ضبط سلوك المؤمنين.

وهنا يمدح النظم القرآني من يخفضون أصواتهم عند رسول الله ويثني عليهم، مبيناً أنهم المؤمنون الذين امتحن الله قلوبهم للتقوي أي: "جربها للتقوى ومرنها عليها أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها أو ضرب قلوبهم بضروب المحن والتكاليف الشاقة لأجل التقوى فإنها لا تظهر إلا بالإصطبار عليها أو أخلصها للتقوى كما يمتحن الذهب بالنار، فيخرج جيده، ويسقط خبثه، وعن عمر رضى الله عنه: أذهب عنها الشهوات"(١) لهم مغفرة عظيمة وأجر عظيم ثواباً لهم لأجل تقواهم.

فالآية "ترغيب في الانتهاء عما نهوا عنه بعد الترهيب عن الإخلال به أى يخفضونها مراعاة للأدب أو خشية من مخالفة النهى"(١)، وبذلك تستوفى أجزاء الكلام، ويتنوع السياق بين ترغيب وترهيب وعقاب وثواب.

وفصل جملة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ عما قبلها؛ للاستئناف البياني؛ لأن التحذير المستفاد من النهي المؤدي إلى أن تحبط الأعمال في الآية السابقة يثير في نفس السامع سؤالاً: وما حال من كان فعله غير ذلك فتأدب ووقر نبيه؟ فأتي الجواب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ...﴾ الآية، ثناء من الله (تعالى) على الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله.

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١١٥/٨، البيضاوي ٢١٢/٥، معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت :٢٠٧هـ)، تحقيق : أحمد يوسف نجاتى / محمدعلى نجار / عبدالفتاح إسماعيل شلبى، ٧٠/٣، دار المصرية للترجمة والنشر.

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١١٥/٨.

"وتفيد الجملة تعليل النهيين بذكر الجزاء عن ضد المنهي عنهما وأكد هذا الاهتمام باسم الإشارة في قوله: أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى مع ما في اسم الإشارة من التنبيه على أن المشار إليهم جديرون بالخبر المذكور بعده لأجل ما ذكر من الوصف قبل اسم الإشارة"(١).

وتصدير الآية بالتأكيد بإن؛ دلالة على تأكيد الثناء على من يخفضون أصواتهم عند رسول الله وإثابتهم العظيمة على هذا العمل.

وقد جاء الأسلوب بطريق الاستعارة، فالغض مستعار لخفض الصوت، شبه خفض الصوت بخفض الطرف "والميل به إلى الإسرار"(٢)، على سبيل الاستعارة المكنية.

و"الغض في الصوت والبصر جماع ما يدخل إلى القلب ويخرج منه، فبالسمع يدخل القلب وبالصوت يخرج منه كما جمع العضوين في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ﴾[البلد:٨، ٩] فبالعين والنظر يعرف القلب الأمور واللسان والصوت يخرجان من عند القلب الأمور هذا رائد القلب وصاحب خبره وجاسوسه وهذا ترجمانه"(١).

وقوله تعالى: ﴿**عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ**﴾ إضافة رسول إلى لفظ الجلالة (الله) تكريماً وتشريفاً له (صلى الله عليه وسلم)، بينما أضاف لفظ رسول إلى الضمير المتصل (ورسوله) في الآية الأولى، منعاً للتكرار – الذي يؤدي في

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٢/٢٦.

(٢) السابق ٢١٩/٢٦.

(١) مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى : ٧٢٨هـ)، تحقيق : أنور الباز – عامر الجزار، ٣٨٣/١٥، دار الوفاء، الطبعة : الثالثة ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.

الكلام العادي إلى الثقل فيخل بفصاحة الكلام- وكتاب الله تعالى هو المعجز، ونظم آياته أولى مراتب البلاغة.

والإشارة بأولئك إلى الاسم الموصول في قوله: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى**﴾ "وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه... تفخيم لشأنه"(١)، فالمعنى: تفخيم وتعظيم شأن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

قال الإمام ابن القيم (رحمه الله): "إن الذي تشتهي نفسه المعاصي ويتركها لله من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم"(٢)، ففي الآية تفخيم لشأن المؤمنين الذين يوقرون رسولهم ويغضون أصواتهم عنده، وهذا التفخيم -المستفاد من الإشارة للبعيد مع قرب العهد بالمشار إليه- ثم بيان الأجر يثيران في نفس المؤمن طاقة إيجابية ويحفزانه على الانصياع والطاعة؛ لينال هذه المرتبة العالية من ثناء الله تعالى وعظيم مغفرته وثوابه.

قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

واستئناف الجملة بدون عطف؛ لتوفر ما يسمى بشبه كمال الاتصال، حيث تثير الجملة السابقة سؤالاً في النفس هو: ما جزاؤهم؟ فالجملة الثانية بمنزلة المتصلة بالجملة الأولى التي اقتضت سؤالاً.

"الجملة إما خبر آخر لأن كالجملة المصدرة باسم الإشارة أو استئناف لبيان جزائهم إحماداً لحالهم وتعريضاً بسوء حال من ليس مثلهم"(١).

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١١٥/٨.

(٢) الفوائد، ابن قيم الجوزيه، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١١٧/٨.

وكثيراً ما يقترن الأجر العظيم بالمغفرة في كتاب الله، يقول تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٣٥]، بتنكير المغفرة والأجر أيضاً، تعظيم لهما وتشويق إليهما، وفي إيثار من يوقرون النبي (صلى الله عليه وسلم) بهذا الأجر تقدير لهم ودلالة على رفعة شأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعلو قدره، قال صاحب الكشاف: "وإيراد الجزاء نكرة مبهماً أمره ناظرة في الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) من خفض أصواتهم ، وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) وقدر شرف منزلته، وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء"(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾.

بين آيات السورة الكريمة حسن تخلص وترتيب معجز، "إذ كان نداؤهم من وراء الحجرات من قبيل الجهر للرسول (صلى الله عليه وسلم) بالقول كجهر بعضهم لبعض فكان النهي عن الجهر له بالقول تخلصاً لذكر ندائه من وراء الحجرات"(٢)، فالآيات متجاورة تتعانق معانيها، مع حسن تخلص، وألفاظها مناسبة للمقصود مؤداة بأسلوب بلاغي معجز ومؤثر.

وجملة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ**﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب حيث يخاطب الله تعالى نبيه بهذه الآية الكريمة، وفي هذا الالتفات تطبيب لنفس رسول الله فقد آذوه بندائه من وراء الحجرات، وهو (صلى الله عليه وسلم)

(١) الكشاف ٣٥٦/٤.
(٢) التحرير والتنوير ٢٢٤/٢٦.

صاحب الخلق العظيم، لم يعاتبهم بنفسه لنفسه، وقد وصفه الله تعالى بأنه يستحيي من معاتبتهم، قال في آية أخرى عن حرمة بيوت النبي واستحيائه لعظيم خلقه: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحِى مِنكُمْ واللهُ لاَ يَسْتَحِى مِنَ الحَقِّ﴾[الأحزاب:٥٣]، فسياق الآية دليل على أن هذا النداء "سوء أدب مع النبي (صلى الله عليه وسلم) فإذا كان يستحيي منكم فلا يباشركم بالإنكار ترجيحاً منه للعفو عن حقه على المؤاخذة به فإن الله لا يستحيي من الحق لأن أسباب الحياء بين الخلق منتفية عن الخالق سبحانه"(١)، وما هذا إلا لأنه (صلى الله عليه وسلم) كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤]، أي: "أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدّبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه"(٢)، والالتفات "من محاسن الكلام، ووجه حسنه: "أن الكلام إذا نُقِلَ من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد"(٣).

وبتتبع حركة المعنى في السورة، فهذه الآية الكريمة تنادي مطلع السورة، وتدل على اختصاصها بمقصد واحد عام يربط بين آياتها، "فهذا شروع في الغرض والذي نشأ عنه ما أوجب نزول صدر السورة فافتتح به، وقد صادف هذا الترتيب المحز أيضاً، والمتأمل يبصر كيف بدأت السورة بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمى إلى اللّه ورسوله متقدّمة على الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد، باستخدام الأسلوب الإنشائي (النهي) والذي أفاد غرضاً مجازياً هو التحذير والوعد اللذين جعلا لأجله صالحين لأن يكونا مقدمة

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٢٣.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ – ٣١٠)، تحقيق : مكتب التحقيق بدار هجر، ٣٠٧/٢٢، دار هجر، الطبعة : الأولى.

(٣) الإيضاح ١٠٥.

للمقصود ثم أردف ذلك النهى عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر، فبدا كأن الأوّل بساط للثاني ووطاء لذكره ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك فغضوا أصواتهم، دلالة على عظيم موقعه عند اللّه، ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطم وهجنته أتم : من الصياح برسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) في حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر، كما يصاح بأهون الناس قدراً؛ لينبه على فظاعة من تجرّؤوا إليه وجسروا عليه؛ لأنّ من رفع اللّه قدره على أن يجهر له بالقول حتى خاطبه جلة المهاجرين والأنصار بأخي السرار، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغاً، فحصل بذلك نسج بديع وإيجاز جليل"(١)، فالآيات متجاورة تتعانق معانيها، وبينهما علائق تربطها ببعضها البعض، ومنها يتبين حسن التخلص ومناسبة المقصود مع دورانها جميعاً في فلك واحد وعدم خروجها عن المقصد العام للسورة.

وتأتي جملة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ...﴾ مفصولة عما قبلها؛ للاستئناف البياني؛ لأن الثواب والجزاء العظيم المؤكد عليه والمستفاد من الآية السابقة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ وهو في حق المتأدبين مع رسول الله يثير في نفس السامع سؤالاً: وما عقاب من لم يوقر نبيه؟ فأتي الجواب فضلاً من الله ومنة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ...﴾ الآية، وفيها لا يصدر الله (عزوجل) عقاباً لهم، بل إنه (جل شأنه) يذكر العذر لهم ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

فالآية "ترغيب في الانتهاء عما نهوا عنه بعد الترهيب عن الإخلال به أى يخفضونها مراعاة للأدب أو خشية من مخالفة النهى"(٢).

---

(١) الكشاف ٣٥٨/٤، التحرير والتنوير ٢٢٤/٢٦ بتصرف.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١١٥/٨.

"هذه الجملة بيان لجملة: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾[الحجرات: ٢] بياناً بالمثال وهو سبب النزول"(١)، وهذا من تناسب المعاني في السورة إذ ينادي بعضها بعضاً.

وافتتاح الآية بإن المؤكدة : تأكيد لمضمونها، فالكلام في حقهم صادر عن الله (عزوجل)، والآية قيل: "نزلت في المتولين لمناداة النبي (عليه الصلاة والسلام)، أو في الحاضرين حينئذ الراضين بفعل المنادين له، وقد سئل عليه الصلاة والسلم عنهم فقال: هم جفاة بني تميم"(١).

وقيل إن الذي أم الناس بالنداء هو الأقرع بن حابس، "وعليه فإسناد فعل ينادونك إلى ضمير الجماعة مجاز عقلي عن نسبة فعل المتبوع إلى أتباعه إذ كان الأقرع بن حابس مقدم الوفد، كما يقال: بنو فلان قتلوا فلانا. وإنما قتله واحد منهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾[البقرة:٧٢]"(٢).

وفي الإتقان: "﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ سمي منهم الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعيينة بن حصن وعمرو بن الأهتم"(٣).

والتعبير بصيغة المضارعة في الفعل: ﴿يُنَادُونَكَ﴾ مع أن النداء قد صدر منهم قبل نزول الآية؛ "لاستحضار حالة ندائهم"(٤) ويبدو أن صاحب التحرير والتنوير يقصد: استحضار الحالة الذهنية، ثم التعبير بالجملة الاسمية: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ دلالة على استمرار الأثر المترتب على هذا الفعل

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٤/٢٦.
(١) الكشاف ٣٥٧/٤.
(٢) التحرير والتنوير ٢٢٥/٢٦.
(٣) الإتقان ٥٨٤٠/٦.
(٤) التحرير والتنوير ٢٢٦/٢٦.

(النداء)، فكل من رفع صوته أو جهر بالقول عند رسول الله في حضرته أو عند مقامه الحالي فربما لا يعقل.

واعترض بقوله: ﴿**مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ**﴾؛ تنبيهاً إلى خطورة ما فعلوه، فهم قد نادوه من وراء الحجرات، "والحجرات: جمع حجرة، كالغرفات جمع غرفة، والظلمات: جمع ظلمة، وقيل: الحجرات جمع حجر، والحجر جمع حجرة، فهو جمع الجمع"(١)، والمراد: بيوت نسائه، "ووراء الحجرات: خارجها وخلفها"(٢).

وتظهر البلاغة في استخدام ﴿مِنْ﴾؛ وذلك لكونها: لابتداء الغاية، ودلالتها على أن النداء إنما نشأ من هذا المكان الوارد في الآية، وهو: جهة الوراء "وأن المنادى داخل الحجرة لوجوب اختلاف المبدأ والمنتهى بحسب الجهة بخلاف ما لو قيل: ينادونك وراء الحجرات"(٣). ولفظ ﴿وَرَاءِ﴾ "مجاز في الجهة المحجوبة عن الرؤية"(٤).

والحجرات: "حُجْراتٌ وحُجُراتٌ وحُجَراتٌ لغات كلها، والحُجْرَةُ: حظيرة الإبل، ومنه حُجْرَةُ الدار تقول: احْتَجَرْتُ حُجْرَةً أَي: اتخذتها والجمع: حُجَرٌ مثل غُرْفَةٍ وغُرَفٍ وحُجُرات بضم الجيم...، والحُجَيْرَة تصغير الحُجْرَةِ، وهي:

---

(١) فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، ٥/٧٠، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ.

(٢) السابق ٥/٧٠.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٨/١١٧.

(٤) التحرير والتنوير ٢٦/٢٢٦.

الموضع المنفرد...، وحُجْرَةُ الدار أَي أَنه يَحْجُر الإنسان النائم ويمنعه من الوقوع والسقوط"[١].

والمقصود: حجرات النبي، "وكانت الحجرات تسعاً، وهي من جريد النخل، أي الحواجز التي بين كل واحدة والأخرى، وعلى أبوابها مسوح من شعر أسود"[١].

ومن لطائف التعبير في النظم القرآني اختيار لفظ ﴿الْحُجُرَاتِ﴾: "كناية عن موضع خلوته، ومقيله مع بعض نسائه"[٢]، وتعريف (الحجرات) باللام تعريف العهد أبلغ من تعريفها بالإضافة؛ "لأن قوله: (ينادونك) مؤذن بأن الحجرات حجراته فلذلك لم تعرف بالإضافة"[٣] فلم يقل: (حجراتك).

وتتناسب الألفاظ مع المعاني، إذ أن الله تعالى لما وصفهم بالمؤمنين ولم يخرجهم بسوء فعلهم عن دائرة الإيمان جاء الحكم مناسباً لصفتهم، فما كان منه تعالى إلا أن شفع لهم سوء فعلهم بقلة تمييزهم كي يتأملوا فيتأدبوا مع رسول الله فيزداد إيمانهم حد التقوى، وذلك قوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ووجدت الزمخشري قد ذكر في الكشاف لطيفة خاصة بقوله تعالى: "﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وكاشفاً بها عن بينات إجلال رسول الله في الآية الكريمة، حيث قال: "شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات، تهويناً للخطب على رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم)، وتسلية له، وإماطة لما تداخله من إيحاش تعجرفهم وسوء أدبهم،

---

(١) لسان العرب، مادة: (حجر).
(١) التحرير والتنوير ٢٢٦/٢٦.
(٢) الكشاف ٣٥٨/٤.
(٣) التحرير والتنوير ٢٢٦/٢٦.

وهلم جرا: من أوّل السورة إلى آخر هذه الآية...، دلالة على عظيم موقعه عند اللّه"[١].

وليتأمل المتدبر والمتبصر في الآيات، إذ أنه لن يدرك فقط **حركة المعنى في السورة والتناسب الدقيق** بين الآيات بل سيجد إلى جانب هذا الإعجاز عظمة الخالق ورفقه بعباده، فقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، هذه الجملة –والله أعلى وأعلم– تنادي أيضاً على جملة: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ فإذا كان أكثرهم لا يعقلون فهذا يؤكد غفلتهم وعدم شعورهم بالندم على ما فعلوه من رفع الصوت والجهر بالقول وندائه(صلى الله عليه وسلم) من وراء الحجرات.

"قال ابن القيم تأمل خطاب القرآن تجد ملكاً له الملك كله، وله الحمد كله، أزمة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه ومردها إليه، مستوياً على العرش لا تخفى عليه خافية من أقطار مملكته عالماً بما في نفوس عبيده مطلعاً على أسرارهم وعلانيتهم..." [١].

قوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾

لا شك أن الآية بمعناها ومعجمها اللفظي تدل على اللوم مع حسن التأديب، وبمراقبة حركة المعنى يجد المتبصر أن الآيات ناظرة لما قبلها، وهذا لم يغب عن أهل التأويل، حيث قال بعضهم:

"إنه تعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهي بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ثم أرشد إلى الأدب في

---

(١) الكشاف ٣٥٩/٤ .

(١) الإتقان في علوم القرآن، المؤلف : أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المحقق : مركز الدراسات القرآنية، ١٥٠٢/٤، دار النشر : مجمع الملك فهد، السعودية، الطبعة : الأولى.

ذلك فقال: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ أي: لكان لهم في ذلك الخير والمصلحة في الدنيا والآخرة ثم قال داعياً لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾"، فالآية تأديب لهم وتعليمهم محاسن الأخلاق وإزالة لعوائد الجاهلية الذميمة"(١).

"وأَصل الصَّبْر: الحَبْس، وكل من حَبَس شيئاً فقد صَبَرَه، والمقصود: حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها، وهو حبس فيه شدة ومشقة على المحبوس"(٢).

وجملة: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا**﴾ في موضع رفع فاعل؛ لأن المعنى: لو "ثبت صبرهم"(٣).

ويلمح صاحب التحرير والتنوير لطيفة من لطائف التعبير القرآني في قوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ**﴾، يقول عن هذا التعبير: "إنه يكسبهم وقاراً بين أهل المدينة ويستدعي لهم الإقبال من الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ يخرج إليهم غير كاره لندائهم إياه، ورفع أصواتهم في مسجده فكان فيما فعلوه جلافة"(٤).

وتتجلى بلاغة النظم القرآني في إيثار التعبير بلفظ (حتى) دون (إلى أن)؛ لأن "حتى مختصة بالغاية المضروبة تقول: تقول : أكلت السمكة حتى

---

(١) مختصر تفسير القرآن العظيم المسمى: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ٣/٣١٤، التحرير والتنوير ٢٦/٢٢٦، بتصرف.
(٢) لسان العرب، مادة: (صبر)، الكشاف ٤/٣٥٩ .
(٣) الكشاف ٤/٣٥٩ .
(٤) التحرير والتنوير ٢٦/٢٢٦.

رأسها، ولو قلت: حتى نصفها، أو صدرها: لم يجز، و(إلى) عامّة في كل غاية"[١].

وأفادت (حتى): "أنّ خروج رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) إليهم غاية قد ضربت لصبرهم، فما كان لهم أن يقطعوا أمراً دون الانتهاء إليه"[٢].

ويتضح سر جمال إيثار التعبير بها "لأجل الإيجاز بحذف حرف (أن) فإنه ملتزم حذفه بعد (حتى) بخلافه بعد (إلى) فلا يجوز حذفه"[٣]، والبلاغة: الإيجاز كما قد قيل.

وحذف المسند إليه (اسم كان) في قوله تعالى: ﴿**لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ**﴾؛ للاحتراز عن العبث، والذي سوغ حذفه: دلالة القرينة عليه مع وجود مرجح للحذف على الذكر، وما دلت عليه القرينة كان من العبث ذكره، وتقدير الكلام: "لكان الصبر خيراً لهم من الاستعجال؛ لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم الرسول الموجبين للثناء والثواب والإسعاف بالمسؤول، إذ روي أنهم وفدوا شافعين في أسارى بني العنبر فأطلق النصف وفادى النصف"[٤].

ثم عقب اللوم السابق بقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾، وفي هذا "إشارة إلى أنه تعالى لم يحص عليهم ذنباً فيما فعلوا ولا عرض لهم بتوبة"[٥]، ويتضح جمال هذه الفاصلة القرآنية في التقديم والتأخير حيث قدم المغفرة على الرحمة والرحمة تستلزم المغفرة، كما يبرز جمالها في كونها جملة

---

(١) الكشاف ٣٥٩/٤ .
(٢) الكشاف ٣٥٩/٤ .
(٣) التحرير والتنوير ٢٢٦/٢٦.
(٤) تفسير البيضاوي ٢١٤/٥.
(٥) التحرير والتنوير ٢٢٦/٢٦.

اسمية مما يدل على استمرار وثبوت صدور المغفرة والرحمة عنه (سبحانه وتعالى) لعباده.

والجملة دليل رحمته تعالى، "والمعنى: والله شأنه التجاوز عن مثل ذلك رحمة بالناس لأن القوم كانوا جاهلين، وهو سبحانه بليغ الغفران والرحمة واسعهما، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا"(١).

ولأن الخطاب القرآني صالح لكل زمان ومكان معجز بنظمه فالآيات من أول سورة الحجرات حتى هذه الآية فيها حث على مكارم الأخلاق وضبط لسلوك الفرد نفسياً واجتماعياً على مر الزمان، وطالب العلم يتأدب مع معلمه ويراعي مكانته ويقدره حق تقديره، ومما يدعو للتأمل رحمة الله بهم وإشفاقه عليهم بفتح باب التوبة والغفران لهم، إنه رب كريم.

ثالثاً: المنهج الصحيح في تلقي الأخبار

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)﴾.

١-عدم التسرع في إصدار الأحكام.

ومن أجل إصلاح المجتمع"هذا نداء ثالث ابتديء به غرض آخر، وهو آداب جماعات المؤمنين مع بعض"(٢)، والمراد به تنقية سرائر المؤمنين، حيث يرشد هذا النظم القرآني إلى المنهج الصحيح في تلقي الأخبار والسلوك

(١) الكشاف ٣٥٩/٤، التحرير والتنوير ٢٢٧/٢٦ بتصرف.
(٢) التحرير والتنوير ٢٢٨/٢٦.

القويم الذي يجب على المؤمنين اتباعه مع من يأتيهم بخبر حتى وإن كان فاسقاً، حيث لم يرشد إلى طرح الخبر وعدم قبوله من الفاسق كلية؛ لفسقه، ولكن أرشد إلى التبين والتثبت، وفي هذا حث على التأني وعدم التسرع في إصدار الأحكام، وفيه أيضاً تنبيه وزجر للفاسق كي يرتدع عن فسقه.

وتتجلى مناسبة الآية لما قبلها في أن دعوة هذه الآية الكريمة إلى التأني وعدم التسرع معنى متعلق بالتنبيه على أفضلية الصبر في الآية السابقة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾، ففي الصبر خير للصابرين دائماً.

والمراد بالآية الكريمة: الحث على التثبت من الأخبار قبل قبولها من قائلها، وهذا حيث يعرض المسلمون الأوائل أمورهم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فهو بينهم، وهو قدوتهم ومرشدهم ومعلمهم، وعلى المتأخرين الاقتداء بالمسلمين الأوائل وذلك بعرض أمورهم على سنة رسول الله واتباع حكم الشرع، وقد أبصرت في هذا هدم الوشاية التي أثبتت الحكايات التاريخية عبر العصور أنها قادرة على هدم الأمم وتغيير مسارهم التاريخي، ونقل بعض الأمم من علو وازدهار إلى سفل، وعلى هذا فالوشاية سلوك سلبي يجب أن يتجنبه المؤمنون كي يسمو المجتمع الإسلامى ويرقى بأخلاقهم.

وعلى هذا فإن الإسلام – من خلال هذا النظم القرآني– يدعو إلى هدم الوشاية من خلال الحرص على "التثبت في الخبر وأخذ الحيطة والحذر في كل أمر من أمور المؤمنين...، وهذه الخطة الحكيمة التي انتهجها الإسلام قاعدة تشريعية وقائية لصيانة المجتمع المسلم من الخصام والتفكك والاندفاع وراء الأهواء الطائشة التي لا تجني منها الأمة إلا كل شر وبلاء"[١].

(١) آيات الأحكام من القرآن ٣٥٦/٢ .

"وهذه الآية أصل في الشهادة والرواية من وجوب البحث عن دخيلة من جهل حال تقواه.وقد قال عمر بن الخطاب لا يؤسر أحد في الإسلام بغير العدول، وهي أيضاً أصل عظيم في تصرفات ولاة الأمور وفي تعامل الناس بعضهم مع بعض من عدم الإصغاء إلى كل ما يروى ويخبر به"(١).

ومن لطائف النظم القرآني في هذه الآيات:

إعادة الخطاب بـ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا**﴾: فيه إشعار للاهتمام بهذا الغرض تحديداً؛ لاستقلاله عما سبق، و"الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا للمناسبة المتقدم ذكرها"(٢) ؛ لذا فصل بين هذه الجملة وما قبلها.

والمؤمنون المخاطبون في هذه الآية هم: المخبَرين والمخبِرين، وهذا معنى لمحه ابن عاشور، يقول: "وهذا الخطاب... موجه ابتداء للمؤمنين المخبَرين- بفتح الباء- كل بحسب أثره بما يبلغ إليه من الأخبار على اختلاف أغراض المخبِرين- بكسر الباء-. ولكن هذا الخطاب لا يترك المخبرين- بكسر الباء- بمعزل عن المطالبة بهذا التبين فيما يتحملونه من الأخبار وبتوخي سوء العاقبة فيما يختلقونه من المختلقات ولكن هذا تبين وتثبت يخالف تبين الآخر وتثبته، فهذا تثبت من المتلقي بالتمحيص لما يتلقاه من حكاية أو يطرق سمعه من كلام والآخر تمحيص وتمييز لحال المخبر"(٣).

ولعموم الخطاب وتناوله الناقل والمنقول إليه، يفهم من الآية أن التحذير عام، "وهذا التحذير من جراء قبول خبر الكاذب يدل على تحذير من يخطر

(١) التحرير والتنوير ٢٣٠/٢٦.
(٢) السابق ٢٢٩/٢٦.
(٣) السابق ٢٣٣/٢٦.

له اختلاق خبر مما يترتب على خبره الكاذب من إصابة الناس. وهذا بدلالة فحوى الخطاب"[١]، فالخطاب بـ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾: "مراد به النبي (صلى الله عليه وسلم) ومن معه ويشمل الوليد بن عقبة إذ صدق من أخبره بأن بني المصطلق يريد له سوءاً ومن يأتي من حكام المؤمنين وأمرائهم؛ لأن المقصود منه تشريع تعديل من لا يعرف بالصدق والعدالة"[٢].

قوله: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ[٣] بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾

وفي سبيل التعبير عن هذا المعنى خص النظم القرآني حرف ﴿**إِنْ**﴾ بالذكر، و(إن) حرف تقليل وشك، وبدت بلاغته في الإشعار بقلة حدوث فعل الشرط، كما "يومىء إلى أنه مما ينبغي أن لا يقع إلا نادراً"[٤] في المجتمع الإسلامي.

وتنكير ﴿**فَاسِقٌ**﴾ و﴿**نَبَإٍ**﴾؛ لإفادة العموم، ومعناه: "في الفساق بأي فسق اتصفوا، وفي الأنباء كيف كانت، كأنه قيل: أي فاسق جاءكم بأي نبأ فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة"[١].

وإيثار النظم القرآني التعبير بلفظ (النبأ) دون (الخبر) أقوى وأشد ملاءمة للمعنى؛ وذلك لتضمن النبأ معنى الخبر، و"النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل: نبأ حتى يتضمن

---

(١) السابق ٢٦/٢٣٢.

(٢) السابق ٢٦/٢٣١.

(٣) "والعرب تقول إذا خرجت الرُّطَبةُ من قشرها قد فَسَقَت الرُّطَبةُ من قشرها وكأَن الفأرة إنما سميت فُوَيْسِقةً لخروجها من جُحْرها على الناس والفِسْقُ الخروج عن الأَمر وفَسَقَ عن أَمر ربه أَي: خرج"، لسان العرب، مادة: (فسق).

(٤) التحرير والتنوير ٢٦/٢٣١.

(١) الكشاف ٤/٣٦٠، التحرير والتنوير ٢٦/٢٣١.

هذه الأشياء الثلاثة، وحق الخبر الذي يقال فيه نبأ أن يتعرى عن الكذب، كالتواتر، وخبر الله تعالى، وخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- ولتضمن النبأ معنى الخبر يقال: أنبأته بكذا كقولك: أخبرته بكذا"(١).

وقد أرشدت الآية الكريمة إلى أن نبأ الفاسق لا يطرح جانباً بل يستوثق ويتثبت منه.

قوله تعالى: ﴿**فَتَبَيَّنُوا**﴾ أي: "فتوقفوا إلى أن يتبين لكم الحال"(٢).

من الخصائص الأسلوبية لنظم السورة حتى هذه الآية: التعبير عن المعاني بأساليب إنشائية تتنوع بين النداء والنهي والأمر، و**قوله تعالى:** ﴿**فَتَبَيَّنُوا**﴾ أسلوب إنشائي (أمر) دل على معنى مجازي هو التنبيه والحث على التأمل والتثبت، قال الراغب الأصفهاني: "وقوله: ﴿إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا﴾[الحجرات: ٦] فتنبيه أنه إذا كان الخبر شيئاً عظيماً له قدر فحقه أن يتوقف فيه؛ وإن علم وغلب صحته على الظن حتى يعاد النظر فيه"(١)، وقال صاحب التحرير والتنوير: "والأمر بالتبين أصل عظيم في وجوب التثبت في القضاء وأن لا يتتبع الحاكم القيل والقال ولا ينصاع إلى الجولان في الخواطر من الظنون والأوهام"(٢)، قال الزمخشري: "وفيه أنّ على المؤمنين أن يكونوا على هذه الصفة؛ لئلا يطمع فاسق في مخاطبتهم بكلمة زور"(٣).

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (نبأ)، ٤٠٢/٢.
(٢) تفسير البيضاوي ٢١٤/٥.
(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (نبأ)، ٤٠٢/٢.
(٢) التحرير ٢٣١/٢٦.
(٣) الكشاف ٣٦٠/٤.

والمفعول محذوف دل عليه قوله: (فاسق بنبأ)، "ومعنى فتبينوا: تبينوا الحق"[١]، وربما يكون السر في حذف المفعول هنا هو اختبار تنبه السامعين بعد أن ناداهم أول الآية.

وتخصيص الفاسق بالذكر وعدم قبول خبر من مثله إلا بعد الاطمئنان إلى صحته بالتأمل والتدقيق والتثبت من قوله؛ "لأن الفاسق ضعيف الوازع الديني في نفسه، وضعف الوازع يجرئه على الاستخفاف بالمحظور وبما يخبر به في شهادة أو خبر يترتب عليهما إضرار بالغير أو بالصالح العام ويقوي جرأته على ذلك دوماً إذا لم يتب ويندم على ما صدر منه ويقلع عن مثله"[٢]؛ "لأنّ من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه"[١]، ولهذا فالفاسق "لا تقبل شهادته ولا خبره...، وروايته غير مقبولة"[٢].

قوله: ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ[٣] فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾

وجملة: ﴿**أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا**﴾ أى: خشية إصابتكم قوماً، ﴿**بِجَهَالَةٍ**﴾ حال، أي: والحال أنكم لا تعلمون ذلك، فيكون المعنى: **أن** تصيبوهم جاهلين، وممن ذهب إلى هذا الزمخشري والفخر الرازي[٤].

" وموقع أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا إلخ نصبا على نزع الخافض وهو لام التعليل محذوفة. ويجوز كونه منصوبا على المفعول لأجله، والمعلل

---

(١) السابق ٢٣١/٢٦.
(٢) السابق ٢٣١/٢٦.
(١) الكشاف ٣٦٠/٤.
(٢) أحكام القرآن للجصاص ٨٦/١.
(٣) "الجَهْل نقيض العِلْم وقد جَهِله فلان جَهْلاً وجَهَالة وجهِلَ عليه وتَجَاهل أَظهر الجَهْل والجَهَالة أَن تفعل فعلاً بغير العِلْم" لسان العرب، مادة: (جهل).
(٤) الكشاف ٣٦٠/٤، مفاتيح الغيب ١٠٤/٢٨.

باللام المحذوفة أو المقدرة هو التثبت، فمعنى تعليله بإصابة يقع آخرها الندم: أن الإصابة علة تحمل على التثبت للتفادي منها، فلذلك كان معنى الكلام على انتفاء حصول هذه الإضافة: لأن العلة إذا صلحت لإثبات الكف عن فعل تصلح للإتيان بضده لتلازم الضد"[١]، ذكره ابن عاشور.

وقد وجه صاحب التحرير والتنوير (الباء) في ﴿**بِجَهَالَةٍ**﴾ توجيهين، فذكر أن: "الجهالة: تطلق بمعنى ضد العلم، وتطلق بمعنى ضد الحلم مثل قولهم: جهل كجهل السيف، فإن كان الأول، فالباء للملابسة وهو ظرف مستقر في موضع الحال، أي: متلبسين أنتم بعدم العلم بالواقع لتصديقكم الكاذب، ومتعلق (تصيبوا) على هذا الوجه محذوف دل عليه السياق سابقاً ولاحقاً، أي: أن تصيبوهم بضر، وأكثر إطلاق الإصابة على إيصال الضر وعلى الإطلاق الثاني الباء للتعدية، أي أن تصيبوا قوما بفعل من أثر الجهالة، أي بفعل من الشدة والإضرار"[١].

وهنا لطيفة ذكرها الفخر الرازي: وهي: "أن الإصابة تستعمل في السيئة والحسنة كما في قوله تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩] لكن الأكثر أنها تستعمل فيما يسوء لكن الظن السوء يذكر معه كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ [النساء: ٧٨]"[٢].

وقوله: ﴿**فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**[٣]﴾ فيه: "تحذير من الوقوع فيما يوجب الندم شرعاً، أي ما يوجب التوبة من تلك الإصابة، فكان هذا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٢/٢٦ بتصرف.

(١) السابق ٢٣٢/٢٦.

(٢) مفاتيح الغيب ١٠٤/٢٨.

(٣) "النَّدْمِ وهو الغَمّ اللازم إذ يَنْدَم صاحبُه لما يَعْثر عليه من سوء آثاره"، لسان العرب، مادة: (ندم).

كناية عن الإثم في تلك الإصابة فحذر ولاة الأمور من أن يصيبوا أحداً بضر أو عقاب أو حد أو غرم دون تبين وتحقق توجه ما يوجب تسليط تلك الإصابة عليه بوجه يوجب اليقين أو غلبة الظن وما دون ذلك فهو تقصير يؤاخذ عليه"[١].

"والإصباح : بمعنى الصيرورة. والندم : ضرب من الغم، وهو: أن تغتمّ على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع ، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام ولزام، لأنه كلما تذكر المتندّم عليه راجعه من الندام"[١]

"وتقديم المجرور في قوله: ﴿**عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾؛ للاهتمام بالفعل (تصيبوا)، والتحذير من عاقبة إقدامهم عليه، حيث إن إصابة قوم قبل التبين يجرهم إلى الندم.

وتنوع الأسلوب في النظم القرآني ما بين فصل ووصل بين جمله في قمة البلاغة ناظراً إلى الأحوال ومقتضياتها، فعطف جملة: (فتبينوا) بالفاء على ما قبلها، وهذا أفاد وجوب التبين والتثبت من الخبر بعد استقباله قبل التسرع في إصدار الحكم، يتبين هذا من معنى الترتيب والتعقيب المستفاد من العطف بالفاء كما أن جملة: ﴿**فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ عطفت على ما قبلها (تصيبوا) بالفاء؛ ، والفاء فيها مراعاة للترتيب والتعقيب، ومعنى (الترتيب) المستفاد من (الفاء) يدل على أن الندم يلي إصابتهم غيرهم جاهلين وأنه لا تراخي بينهما، ومعنى (التعقيب) المستفاد من (الفاء) يدل على استمرار الندم، فلحروف العطف دور كبير في أداء المعنى في الآية الكريمة.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٤/٢٦.

(١) الكشاف ٣٦١/٤ ، ٣٦٢.

وتتبين الدقة وروعة الأسلوب في التعبير عن المعاني باستخدام الألفاظ المناسبة لها، فهذه الجملة (فتصبحوا) المعطوفة بالفاء على ما قبلها، يستفاد منهما فائدتان استنبطهما الفخر الرازي، وهما:

"تقرير التحذير وتأكيده، لما قال تعالى: ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ بين حالهم بعد هذا الخطأ وهو ندم وغم يصيبهم، وهو هم دائم وحزن مقيم، ومثل هذا الشيء واجب الاحتراز منه، والثانية: مدح المؤمنين أي لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها بل تصبحون نادمين عليها"(١)، وهذا يحرك قلوب المؤمنين ويثير في نفوسهم شدة الحرص على التبين والتثبت من الأخباؤ المنقولة إليهم خوفاً من أن يلحقهم هم وغم.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧)﴾

يهدف الخطاب القرآني في هذه الآية إلى دعوة من يشملهم الخطاب إلى تطهير النفوس واستمداد العلم من رسول الله والعمل بما يرشد إليه، فوجود الرسول (صلى الله عليه وسلم) بين أصحابه حصن حصين وركن قويم يلجؤون إليه، وهو (صلى الله عليه وسلم) قادر على تناول الأمور في تؤدة وأناة وهذا يمنع من الوقوع في العنت وهو الهلاك والمشقة، وقد حبب الله تعالى الإيمان إلى نفوس المؤمنين كما زينه في القلوب.

والمعنى: "اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظَّموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم كما قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى

(١) مفاتيح الغيب ١٠٥/٢٨.

بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[الأحزاب:٦] ثم بين أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجكم"(١).

وجملة: ﴿**وَاعْلَمُوا**﴾ "عطف على جملة: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾[الحجرات:٦] عطف تشريع على تشريع وليس مضمونها تكملة لمضمون جملة: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ ...﴾ إلخ بل هي جملة مستقلة"(٢)، ويجوز أن تكون جملة: (واعلموا) معطوفة بالواو على جملة: (فتبينوا)، ويعضد ذلك رأي الفخر الرازي حيث رأى أن "الذي يجوز أن يقال وكأنه هو الأقوى أن الله تعالى لما قال: ﴿إِن جَاءكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ﴾ أي: فتثبتوا واكشفوا قال بعده: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: الكشف سهل عليكم بالرجوع إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فإنه فيكم مبين مرشد"(٣).

وابتداء الآية بالأسلوب الإنشائي (الأمر) بقوله: ﴿**اعْلَمُوا**﴾؛ "للاهتمام"(٤) بشأنهم والتنبيه على ما فيه الخير والصلاح لدينهم ودنياهم، واستدعاء مزيد الحرص منهم على اتباع حكم الله ورسوله، والتحذير من اجتنابه.

وجملة ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ خبر ﴿وَاعْلَمُواْ﴾، والكلام فيه دلالة إيحائية على وجه الكناية، فهي كناية عن صفة وهي غفلتهم عن وجوده (صلى الله عليه وسلم) بينهم، وفي هذا قال الطاهر بن عاشور"وقوله: ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾: خبر مستعمل في الإيقاظ والتحذير على وجه الكناية. فإن كون رسول

---

(١) مختصر تفسير القرآن العظيم المسمى: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ٣/٣١٤، ٣١٥.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/٢٣٤.

(٣) مفاتيح الغيب بتصرف ٢٨/١٠٥.

(٤) التحرير والتنوير ٢٦/٢٣٤.

الله (صلى الله عليه وسلم) بين ظهرانيهم أمر معلوم لا يخبر عنه فالمقصود تعليم المسلمين باتباع ما شرع لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحكام ولو كانت غير موافقة لرغباتهم"[١].

ومن لطائف البلاغة في الآية أيضاً: تقديم خبر أن (الجار والمجرور) (فيكم) على اسمها، وهذا التقديم للمسند جاء لإفادة التخصيص ولانصباب الغرض إليه، فالكلام في سياق استهجان ما فعلوه، ورسول الله مقيم بينهم، قال ابن عاشور: "للاهتمام بهذا الكون فيهم وتنبيهاً على أن واجبهم الاغتباط به والإخلاص له؛ لأن كونه فيهم شرف عظيم لجماعتهم وصلاح لهم"[٢].

وجملة: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾

بحث المفسرون في هذه الآية بحثاً طويلاً، وتباينت آراؤهم، بين كون الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً أو حالاً، فجاز عند الطاهر بن عاشور[٣] أن تكون استئنافاً بيانياً على اعتبار أن ضميري الجمع في قوله: ﴿**يُطِيعُكُمْ**﴾ وقوله: ﴿**لَعَنِتُّمْ**﴾ عائدان إلى ﴿الذين آمنوا﴾ على توزيع الفعل على الأفراد فالمطاع بعض الذين آمنوا وهم الذين يبتغون أن يعمل الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما يطلبون منه، والعانت بعض آخر وهم جمهور المؤمنين الذين يجري عليهم قضاء النبي بحسب رغبة غيرهم، كما جاز عنده أن تكون جملة: ﴿**لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ**﴾ في موضع الحال من ضمير فيكم؛ لأن مضمون الجملة يتعلق بأحوال المخاطبين، من جهة أن مضمون

---

(١) السابق ٢٦/٢٣٤.
(٢) السابق ٢٦/٢٣٥.
(٣) السابق ٢٦/٢٣٤ بتصرف.

جواب لو عنت يحصل للمخاطبين. ومآل الاعتبارين في موقع الجملة واحد وانتظام الكلام على كلا التقديرين غير منثلم.

على حين ذهب الزمخشري[١] قبله إلى أن الجملة المصدرة بلو ليست استئنافاً؛ لأن ذلك يؤدي إلى تنافر النظم [بمعنى أنه لن تكون هناك مناسبة بين جملة: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ والجملة قبلها: ﴿وَاعْلَمُواْ﴾][٢]، وإنما هي متصلة بما قبلها حالاً من أحد الضميرين في (فيكم) [الضمير] المستتر المرفوع، أو البارز المجرور. وكلاهما مذهب سديد. والمعنى: أن فيكم رسول اللّه على حالة يجب عليكم تغييرها. أو أنتم على حالة يجب عليكم تغييرها، وهي: أنكم تحاولون منه أن يعمل في الحوادث على مقتضى ما يعنّ لكم من رأي، واستصواب فعل المطواع لغيره التابع له فيما يرتئيه، المحتذى على أمثلته.

والذي ترتاح إليه النفس هو: حسن قول الزمخشري، وقد استحسنه الفخر الرازي أيضاً حيث قال: "ولنذكر في تفسير هذه الآية ما قيل وما يجوز أن يقال أما ما قيل فلنختر أحسنه وهو ما اختاره الزمخشري... وهو أن قوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ في تقدير حال من الضمير المرفوع في قوله: ﴿فِيكُمْ﴾ كان التقدير كائن فيكم أو موجود فيكم على حال تريدون أن يطيعكم أو يفعل باستصوابكم ولا ينبغي أن يكون في تلك الحال؛ لأنه لو فعل ذلك ﴿لَعَنِتُّمْ﴾

(١) الكشاف ٣٦١/٤ بتصرف.
(٢) ذكره الفخر الرازي في تفسيره ١٠٥/٢٨، نقلاً عنه بتصرف.

أو لوقعتم في شدة أو أولمتم به"[١]، كما ذكره الشهاب في حاشيته على البيضاوي[٢].

وفي الآية دليل على أن "بعض المؤمنين زينوا لرسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد. وأن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم، وأن بعضهم كانوا يتصوّنون ويزعهم جدّهم في التقوى عن الجسارة على ذلك، وهم الذين استثناهم بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ﴾ أى: إلى بعضكم ، ولكنه أغنت عن ذكر البعض: صفتهم المفارقة لصفة غيرهم، وهذا من إيجازات القرآن ولمحاته اللطيفة، التي لا يفطن لها إلا الخواص. وعن بعض المفسرين : هم الذين امتحن اللّه قلوبهم للتقوى"[٣].

و"الطوع: الانقياد، ويضاده الكره...، والطاعة مثله لكن أكثر ما تقال في الائتمار لما أمر، والارتسام فيما رسم"[٤].

والنبي (صلى الله عليه وسلم) صاحب الخلق العظيم قد أمره الله تعالى ألا يطيع الكافرين والمنافقين "قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[الأحزاب:١]، فالخطاب للنبي

(١) تفسير الرازي ١٠٥/٢٨.
(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (ت: ١٠٦٩هـ)، ٧٦/٨، دار صادر، بيروت.
(٣) الكشاف ٣٦١/٤.
(٤) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (طوع)، ٤١/٢.

والمراد المؤمنون؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان تقياً، وحاشاه من طاعة الكافرين والمنافقين"[١].

و(لو) الشرطية الدالة على "امتناع الشيء لامتناع غيره"[٢]، دلت على امتناع حدوث الفعل، واستحالة طاعته لهم (صلى الله عليه وسلم) في كثير من الأمور والنوازل التي تحل بهم، ولما كان السامع قد بدا عليه ما يدل على غفلته عن ذلك وعدم تنبهه أتى جواب (لو) الشرطية مؤكداً هذا المعنى باللام (لعنتم).

ويلحظ التعبير بصيغة المضارع: ﴿يُطِيعُكُمْ﴾ الدال على استمرار حدوث الفعل وتجدده، دون لفظ الماضي(أطاعكم)؛ "للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه. وأنه كلما عنّ لهم رأي في أمر كان معمولاً عليه، بدليل قوله فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ كقولك: فلان يقرى الضيف ويحمى الحريم، تريد: أنه مما اعتاده ووجد منه مستمرّا"[٣].

واحترز بلفظ ﴿كَثير من﴾ "عن طاعته إياهم في بعض الأمر مما هو غير شؤون التشريع كما أطاعهم في نزول الجيش يوم بدر على جهة يستأثرون فيها بماء بدر، والأمر هنا بمعنى الحادث والقضية النازلة"[٤].

ذكر بعض أهل التأويل أن من لطائف التعبير بجملة: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ "مبالغات من أوجه:

أحدها: إيثار (لو) ليدل على الفرض والتقدير.

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/٢٥٩ .
(٢) الإيضاح ١٢٧ .
(٣) الكشاف ٤/٣٦١، ٣٦٢.
(٤) التحرير والتنوير ٢٦/٢٣٥ بتصرف.

الثاني: ما في العدول إلى المضارع من إرادة استمرار ما حقه أن يفرض؛ للتهجين والتوبيخ.

الثالث: ما في لفظ: (العنت) من الدلالة على أشد المحذورة فإنه الكسر بعد الجبر.

الرابع: ما في الخطاب، والجدير به غير الكُمَّل ليكون أردع لمرتكبه وأزجر"[١].

﴿لَعَنِتُّمْ﴾

"المعانتة: كالمعاندة لكن المعانتة أبلغ؛ لأنها معاندة فيها خوف وهلاك"[٢] ، والمعنى: "أي لوقعتم في الجهد من العنت وفيه إشعار بأن بعضهم أشار إليه بالإيقاع ببني المصطلق"[٣].

﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ[٤] فِي قُلُوبِكُمْ﴾

تتلاحم معاني الآيات في السورة الكريمة، قال الراغب الأصفهاني: "وقال بعضهم: الزينة المذكورة في هذه الآية هي الكرم المذكور في قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]"[٥].

ويبين النظم القرآني في هذه الآية مدى الاهتمام بالجانب النفسي لدى المؤمن، فقوله: "﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ[١] فِي قُلُوبِكُمْ﴾ هو من الزينة

---

(١) روح المعاني ١٤٨/٢٦ باختصار.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (عنت)، ١٢٨/٢.

(٣) تفسير البيضاوي ٢١٥/٥.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (زين)، ٤٤٧/١.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (زين)، ٤٤٨/١.

(١) زينه: "الزينة الحقيقية: ما لا يشين الإنسان في شيء من أحواله لا في الدنيا، ولا في الآخرة، فأما ما يزينه في حالة دون حالة فهو من وجه شين، والزينة بالقول المجمل =

النفسية"[١]، وقد أولى الإسلام عناية كبيرة بالجانب النفسي للمؤمن، فالاستدراك بجملة: ﴿**لكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ**﴾ بمثابة الدعم النفسي للمؤمنين؛ لأن "المحبة أبلغ من الإرادة، فكل محبة إرادة، وليس كل إرادة محبة"[٢]، فالتزام المؤمن بإرادته دليل محبته فإذا كانت هذه المحبة هبة من عند الله كان التعبير أبلغ، كما عليه الآية الكريمة. والله تعالى حبب الإيمان إلى نفوس المؤمنين بدليل ندائه في مفتتح السورة: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾، وتكرر النداء بنفس الصفة عدة مرات، والاستدراك بلفظ (لكن) ومجيء الجملة بعده ﴿**اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ**﴾ فيه إيحاء بأن النفوس المؤمنة التي تزينت قلوبها بزينة الإيمان من قِبل الله تعالى على درجة من الفطنة والذكاء وصفاء الضمير تجعلها قادرة بذاتها على التثبت من صحة الأخبار وتبين الفاسق من الصادق، تلك هي القلوب الطاهرة التي أودعها حب الإيمان وزين قلوبها بزينته.

وشرط (لكنّ) الاستدراك، أي ما بعدها يكون مخالفاً لما قبلها، وقد فقد هذا الشرط في الآية الكريمة، لكن الذي يلحظ أنه مفقود من حيث اللفظ فقط، لكنه حاصلمن حيث المعنى؛ لأن الذين حبب إليهم الإيمان تختلف صفتهم عن صفة من تقدم ذكرهم، فوقعت لكنّ في موقعها الصحيح من الاستدراك[١].

=

ثلاث: زينة نفسية كالعلم، والاعتقادات الحسنة، وزينة بدنية، كالقوة وطول القامة، وزينة خارجية كالمال والجاه" مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (زين)، ٤٤٧/١.

(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (زين)، ٤٤٧/١.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن ٢٠٦/١.

(١) الكشاف ٣٦٢/٤ بتصرف.

ومعنى: ﴿**حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ**﴾ أي: وفقكم إليه، قال الزمخشري: "ومعنى تحبيب اللّه وتكريهه: اللطف والإمداد بالتوفاق، وسبيله الكناية"(١)، وقد أثبتت الكناية المعنى المراد وبينت حال الموصوف.

وحسُن التعبير بهذا اللفظ ﴿**حَبَّبَ**﴾؛ لما له من دلالات نفسية وإيحاءات معنوية، فتوفيق الله لهم إلى الإيمان دليل توفيقه تعالى لهم، والتضعيف أفادة تقوية المعنى وشدة الحرص عليهم.

وتقديم الجار والمجرور: ﴿**إِلَيْكُمُ**﴾ لإفادة تخصيص التحبيب بالمؤمنين فإنه (سبحانه وتعالى) قد أودع قلوبهم هذا الحب.

"وقوله تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ**﴾ الخ تجريد للخطاب وتوجيه له إلى بعضهم بطريق الاستدراك بياناً لبراءتهم عن أوصاف الأولين"(٢).

والتعبير بالأسلوب الخبري في قوله: ﴿**حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَالْعِصْيَانَ**﴾ أفاد: "الإلهاب وتحريك الهمم لمراعاة محبة الإيمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان، أي: إن كنتم أحببتم الإيمان وكرهتم الكفر والفسوق والعصيان فلا ترغبوا في حصول ما ترغبونه إذا كان الدين يصد عنه وكان الفسوق والعصيان يدعو إليه"(١).

"وحبب الله إلي كذا، قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾ [الحجرات:٧]، وأحب البعير: إذا حرن ولزم مكانه، كأنه أحب المكان الذي وقف فيه، وحبابك أن تفعل كذا، أي: غاية محبتك ذلك"(٢).

---

(١) الكشاف ٣٦٢/٤.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١١٩/٨.

(١) التحرير والتنوير ٢٣٧/٢٦.

(٢) مجمل اللغة ٢٢٠/١، مفردات ألفاظ القرآن ٢٠٦/١، بتصرف.

ومن رقائق النظم القرآني في الآية التعبير بالاسم الظاهر بدل المضمر في قوله: (ولكن الله) حيث لم يقل: (ولكني)؛ "لما يشعر به اسم الجلالة من المهابة والروعة. وما يقتضيه من واجب اقتبال ما حبب إليه ونبذ ما كره إليه"(١).

"وأعظم الكفر: جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً، والكفر في الدين أكثر"(٢).

قال الراغب الأصفهاني: "وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الزخرف:١٥]...، إن قيل: كيف وصف الإنسان ههنا بالكفور، ولم يرض بذلك حتى أدخل عليه إن، واللام، وكل ذلك تأكيد، وقال في موضع ﴿**وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ**﴾ [الحجرات:٧]، فقوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ تنبيه على ما ينطوي عليه الإنسان من كفران النعمة، وقلة ما يقوم بأداء الشكر، وعلى هذا قوله: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس:١٧] ولذلك قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، وقوله: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣] تنبيه أنه عرفه الطريقين كما قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠] فمن سالك سبيل الشكر، ومن سالك سبيل الكفر"(١).

وعدي الفعلان: (حبب) و(كره) بحرف (إلى)؛ "لتضمينهما معنى بلغ، ولما كان فى التحبيب والتكريه معنى إنهاء المحبة والكراهة وإيصالها إليهم، أي: بلغ إليكم حب الإيمان وكره الكفر. ولم يعد فعل وزينه بحرف (إلى) مثل

(١) التحرير والتنوير ٢٣٧/٢٦.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (كفر)، ٣٠٤/٢.
(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (كفر)، ٣٠٥/٢.

فعلي حبب وكره، للإيماء إلى أنه لما رغبهم في الإيمان وكرههم الكفر امتثلوا فأحبوا الإيمان وزان في قلوبهم"[١].

ولحروف العطف دور كبير في أداء المعنى، حيث عطف بالواو بين الأفعال: (حبب وزينه وكره)؛ لاتفاق الجمل في الخبرية لفظاً ومعنى، مع التناسب في الفعلية والمضارعة، مع قصد التشريك في الحكم الإعرابي.

وفي الآية الكريمة من فنون البديع ما أضاف الحسن للمعنى، فبين الجملتين: (حبب إليكم الإيمان) و(كره إليكم الكفر) مقابلة اثنين باثنين، والمقابلة تثري المعنى وتجذب انتباه السامع.

وفي قوله: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ "تعريض بأن الذين لا يطيعون الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيهم بقية من الكفر والفسوق"[٢].

﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾

و"الرُّشْد والرَّشَد: خلاف الغي، يستعمل استعمال الهداية...، وقال بعضهم: الرُّشد أخص من الرَّشد، فإن الرشد يقال في الأمور الدنيوية والأخروية، والرشد يقال في الأمور الأخروية لا غير. والراشد والرشيد يقال فيهما جميعاً، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧]"[١]، بمعنى: "أولئك المستثنون هم المستقيمون، السالكون إلى الطريق السوي الموصل إلى الحق"[٢].

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢٠/٨، التحرير والتنوير ٢٣٧/٢٦، بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير ٢٣٦/٢٦.

(١) مفردات ألفاظ القرآن ٤٠٢/١.

(٢) الكشاف ٣٦٢/٤، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢٠/٨، التحرير والتنوير ٢٣٧/٢٦، بتصرف.

وضمير الفصل: ﴿هُمُ﴾ أفاد القصر، "وهو قصر إفراد إشارة إلى أن بينهم فريقاً ليسوا براشدين، وهم الذين تلبسوا بالفسق حين تلبسهم به فإن أقلعوا عنه التحقوا بالراشدين"(١)، ويستفاد من ضمير الفصل "التعظيم، أي: هؤلاء الذين حبب إليهم الإيمان، وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، هم الذين بلغوا أرفع الدرجات وأعلى المناصب، ونالوا هذه الرتبة العظيمة رتبة الرشاد فضلا من الله وكرماً(٢)،

﴿فَضْلا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

بعد أن بين الله تعالى ما وهبهم إياهم من نعمة جاءت هذه الجملة تأكيداً لعطائه.

قال أبو السعود: أي: "وإنعاماً تعليل لحبب أو كره وما بينهما اعتراض، وقيل: نصبهما بفعل مضمر أى: جرى ذلك فضلاً، وقيل: يبتغون فضلاً، (والله عليم) مبالغ فى العلم فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل، عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، (حكيم) في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره يفعل كل ما يفعل بموجب الحكمة"(١).

﴿فَضْلا﴾ مفعول له، وقد فصل الزمخشري وجه جواز وقوعه مفعولاً له، مع أن (الرشد) فعل القوم، و(الفضل) فعل الله تعالى، والشرط في المفعول له: أن يتحد الفاعل، حيث قال: "لما وقع الرشد عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه، مسندة إلى اسمه تقدست أسماؤه: صار الرشد كأنه فعله، فجاز أن

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٧/٢٦.

(٢) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن تأليف: الشيخ محمد علي الصابوني، ٤٨١/٣، دار الصابوني، القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

(١) تفسير أبي السعود ١٢٠/٨، مختصر تفسير القرآن العظيم المسمى: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ٣١٥/٣.

ينتصب عنه أو لا ينتصب عن الراشدون، ولكن عن الفعل المسند إلى اسم اللّه تعالى، والجملة التي هي ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ اعتراض. أو عن فعل مقدر، كأنه قيل: جرى ذلك، أو كان ذلك فضلاً من اللّه. وأما كونه مصدراً من غير فعله، فأن يوضع موضع رشداً؛ لأنّ رشدهم فضل من اللّه؛ لكونهم موفقين فيه، والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام"(١).

ومن قطوف البلاغة في الآية الكريمة: "جملة: ﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ تذييل لجملة: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ**﴾ إلى آخرها إشارة إلى أن ما ذكر فيها من آثار علم الله وحكمته .. والواو اعتراضية"(١)، والسر في بلاغة التذييل هنا هو: تأكيد مفهوم الكلام السابق.

وتتصاعد حركة المعنى في السورة، فتأتي هذه الآية الكريمة مقدمة لما يليها من الآيات حيث انتقل النظم القرآني إلى الإرشاد إلى الآداب التي يجب أن يتحلى بها المؤمن إذا هو التزم بما جاء أول السورة وحرص على الرجوع إلى مصدري التشريع في كل أموره، وفي هذا كله ضبط لسلوكيات المجتمع.

رابعاً: الإرشاد إلى حل المشكلات

قال تعالى: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ**

(١) الكشاف ٣٦٣/٤.

(١) التحرير والتنوير ٢٣٨/٢٦.

بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)﴾

ينتقل النظم القرآني إلى رسم منهج آخر خاص للأمة بعد التأكد من تقدير مصدري الشرع وإعطائهما الأولوية في جميع شؤون المرء من احتياجات شرعية واجتماعية ونفسية وروحية، ومن هنا ينتقل إلى الإرشاد إلى حل المشكلات وأداء الحقوق، والتفريق بين ما يستوجب العمل التعاوني الجماعي والعمل الفردي المستقل، من أجل المحافظة على تماسك المجتمع وأمنه ويشمل الآيات من (٩-١٢) على النحو التالي:

١- قتال الفئة الباغية، وأداء الحقوق

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)﴾

مناسبة الآية لما قبلها:

تستمر الآيات في ذكر الآداب المجتمعية التي يتحقق بها الصلاح للأمة ولكل المجتمعات لا على مستوى الفرد وحده، وتتلاحم المعاني في السورة وينادي بعضها بعضاً، فقوله تعالى: **﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾** يذكر بقوله: **﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا﴾**، قال صاحب التحرير والتنوير: "لما جرى قوله: **﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾** [الحجرات: ٦] الآية كان مما يصدق عليه إصابة قوم أن تقع الإصابة بين طائفتين من المؤمنين؛ لأن من الأخبار الكاذبة أخبار النميمة بين القبائل وخطرها أكبر مما يجري بين الأفراد والتبين فيها أعسر، وقد لا يحصل التبين إلا بعد أن تستعر نار الفتنة ولا تجدي

الندامة"[١]، قال الزمخشري: "ولا تخلو الفئتان من المسلمين في اقتتالهما: إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعاً، فالواجب في ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة، فإن لم تتحاجزا ولم تصطلحا وأقامتا على البغي : صير إلى مقاتلتهما، وإما أن يلتحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما، وكلتاهما عند أنفسهما محقة، فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة، واطلاعهما على مراشد الحق. فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا من اتباع الحق بعد وضوحه لهما، فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين. وإما أن تكون إحداهما الباغية على الأخرى، فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينهما وبين المبغى عليها بالقسط والعدل"[١].

والآية الكريمة بمفهوم عصرنا الحاضر تدعو إلى الحوار السلمي – المبني على سلمية التعايش مع الآخرين– بين طوائف المجتمع المسلم، وعلى الرغم من تطور الحضارات فما زال النزاع والشقاق قائماً بين البشر.

"إن الخطاب الإسلامي هو الخطاب الذي يجب أن يوسع آفاقه ليشمل خطاب الإنسان للإنسان....؛ لأن هذه الإنسانية هي صورة داخلنا وصورة عقلنا المفكر وقلبنا النابض في التراث وطاقتنا المتفجرة في الواقع"[٢].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٨/٢٦.

(١) الكشاف ٣٦٥/٤.

(٢) الحوار والتسامح في الخطاب القرآني، أ.د. سامي شهيد مشكور، جامعة الكوفة– كلية الآداب، بحث بحولية المنتدى، العراق، المجلد ١٧، العدد ٧، ص٦٣، ٢٠١٤م.

وبتأمل الآية الكريمة للكشف عما بها من فنون بلاغية كانت جزءاً من إعجازها، تجد كثيراً من قطوف البلاغة، وكثيراً من جماليات الأسلوب، ومن بينها:

التعبير بـ﴿**إِنْ**﴾ الشرطية، دل على أن الأمر الداخلة عليه، وهو القتال بين الطائفتين، مما ينبغي أن يقل وجوده بين المؤمنين بل يندر، و"إن حرف شرط يخلص الماضي للاستقبال فيكون في قوة المضارع"(١).

وتقديم المسند إليه (طائفتان) على الفعل (اقتتلوا)؛ للاهتمام بالمسند إليه، "وإنما عدل عن المضارع بعد كونه الأليق بالشرط؛ لأنه لما أريد تقديم الفاعل على فعله للاهتمام بالمسند إليه جعل الفعل ماضياً على طريقة الكلام الفصيح في مثله مما أوليت فيه إن الشرطية الاسم نحو: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك﴾[التوبة: ٦]، وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا[النساء:١٢٨] . قال الرضي «وحق الفعل الذي يكون بعد الاسم الذي يلي (إن) أن يكون ماضيا وقد يكون مضارعا على الشذوذ وإنما ضعف مجيء المضارع لحصول الفصل بين الجازم وبين معموله»"(١).

ثم حذف المسند في قوله: ﴿**طَائِفَتَانِ مِن الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا**﴾؛ للعناية بالمسند إليه، ومن رحمة الله تعالى بالمؤمنين أنه لم ينف الإيمان عن الفئة الباغية بل إنهم كما وصفتهم الآية الكريمة طائفة ﴿**مِن الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

وعبر النظم القرآني عن قتال الطائفتين بصيغة الجمع: ﴿**اقْتَتَلُوا**﴾، ووجه حسن ذلك، ما ذكره الزمخشري حيث قال: "هو مما حمل على المعنى دون اللفظ؛ لأنّ الطائفتين في معنى القوم والناس. وفي قراءة عبد اللّه : حتى

(١) التحرير والتنوير ٢٣٩/٢٦.

(١) التحرير والتنوير ٢٣٩/٢٦.

يفيئوا إلى أمر اللّه ، فإن فاءوا فخذوا بينهم بالقسط"[١]، و"الطائفةُ الرجل الواحد إلى الألَف، والطائفة: الجماعة من الناس"[٢].

والأمر بقوله تعالى: ﴿**فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**﴾ دل على معنى مجازي هو النصح والإرشاد، والمقصود إرشاد المؤمنين إلى الإصلاح بين الفئتين المتقاتلتين أولاً، وذلك يكون ينصحهم وحثهم على التسامح وحسن المعاملة، قال الراغب الأصفهاني: "والصلح يختص بإزالة النفار بين الناس، يقال منه: اصطلحوا وتصالحوا"[١].

ويتكرر التعبير بـ﴿**إِنْ**﴾ الشرطية في قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى**﴾، وتكراره في الأسلوب أمر اقتضاه المقام، مناسب تماماً للأحوال ومقتضياتها، فإذا كان الحال أول الآية هو وجود قتال بين طائفتين– مع الإشارة إلى أن ذلك مما ينبغي أن يقل حدوثه بين المؤمنين–والذي يجب هو الإصلاح بينهما، والحال هنا أن طائفة منهما قد لا تقبل النصح وتتعدى على الأخرى، وكلا الأمرين: (القتال بين طائفتين) أو (بغي إحداهما على الأخرى) أمر لا يصح صدوره عن المؤمنين، وهذا معنى مستفاد من استخدام (إنْ).

"والبغي: التعدي، والاستطالة على الناس، والظلم والفساد، وإباء الصلح"[٢]، والبغي: "تجاوز الحق إلى الباطل"[٣]؛ لذا كان الأمر بقتالهم في قوله تعالى: ﴿**فَقَاتِلُوا**﴾،"أي: فإن ابتدأت إحدى الطائفتين قتال الأخرى ولم

---

(١) الكشاف ٣٦٤/٤.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن ٤٥/٢، لسان العرب، مادة: (طوف).
(١) مفردات ألفاظ القرآن، كتاب: (الصاد)، مادة: (صلح)، ٥٨٧/١.
(٢) لسان العرب مادة: (بغي)، الكشاف ٣٦٤/٤.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن، كتاب: (لباء)، مادة: (بغى)، ١٠٦/١.

تنصع إلى الإصلاح فقاتلوا الباغية"[١]، وهو أمر أريد به الوجوب والإلزام؛ "لأن هذا حكم بين الخصمين والقضاء بالحق واجب؛ لأنه لحفظ حق المحق، ولأن ترك قتال الباغية يجر إلى استرسالها في البغي وإضاعة حقوق المبغي عليها في الأنفس والأحوال والأغراض والله لا يحب الفساد، ولأن ذلك يجريء غيرها على أن تأتي مثل صنيعها فمقاتلتها زجر لغيرها"[١].

وليس لأحد من عامة الناس قتال الفئة الباغية إنما "يتحقق وصف البغي بإخبار أهل العلم أن الفئة بغت على الأخرى أو بحكم الخليفة العالم العدل، وبالخروج عن طاعة الخليفة وعن الجماعة بالسيف إذا أمر بغير ظلم ولا جور ولم تخش من عصيانه فتنة؛ لأن ضر الفتنة أشد من شد الجور في غير إضاعة المصالح العامة من مصالح المسلمين، وذلك لأن الخروج عن طاعة الخليفة بغي على الجماعة الذين مع الخليفة"[٢].

﴿حَتَّى تَفِيءَ[٣] إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾

ويبدو تسامح الدين الإسلامي بقوله تعالى: ﴿**فَأَصْلِحُوا**﴾ و"هذا إصلاح ثان بعد الإصلاح المأمور به ابتداء. ومعناه: أن الفئة التي خضعت للقوة وألقت السلاح تكون مكسورة الخاطر شاعرة بانتصار الفئة الأخرى عليها فأوجب على المسلمين أن يصلحوا بينهما بترغيبهما في إزالة الإحن

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٩/٢٦.
(١) التحرير والتنوير ٢٤١/٢٦.
(٢) التحرير والتنوير ٢٤٠/٢٦.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (فيأ)، ٢١١/٢.

والرجوع إلى أخوة الإسلام لئلا يعود التنكر بينهما"[١]، وخلاصة الأمر أن "الذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما: إصلاح ذات البين"[١].

﴿**بِالْعَدْلِ**﴾ حال من فاعل (أصلحوا)، وتقييد الإصلاح بالعدل؛ "لأنه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة"[٢]، "وفيها دلالة على أن الباغي لا يخرج بالبغي عن الإيمان وأنه إذا أمسك عن الحرب ترك لأنه فىء إلى أمر الله تعالى وأنه يجب معاونة من بغى عليه بعد تقديم النصح والسعي فى المصالحة"[٣].

ثم أمر المسلمين بالعدل بقوله تعالى: ﴿**وَأَقْسِطُوا**﴾[٤] وهو أسلوب إنشائي (أمر)، جاء مؤكداً للأمر السابق ﴿**فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ**﴾ تذييلاً له، مناسباً لحركة المعنى في السورة الكريمة حيث ناسب المقصد العام من عدم التقديم بين يدي الله ورسوله والأمر باتقاء الله، في أول السورة، ورب إصلاح فيه جور على إحدى الفئتين، فعطف بجملة: "وأقسطوا" تأكيد على الإصلاح بالعدل ومراعاة لحفظ حقوق الطائفتين.

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ جملة استئنافية تعليلية مؤكدة بإن، عللت الأمر الوارد في الجملة السابقة عليها ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾، والجملة ترغيب وحث على فعل ما أمروا به؛ لأنه مما يحبه الله تعالى، والمراد: "وأقسطوا إن الله يحب المقسطين أي: واعدلوا في

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٢/٢٦.

(١) الكشاف ٣٦٦/٤.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢٠/٨.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢٠/٨.

(٤) "القسط: هو النصيب بالعدل". مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (قسط)، ٢٤١/٢.

كل ما تأتون وما تذرون إن الله يحب العادلين، ومحبته لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء"(١).

ومن الفنون البديعية في الآية الكريمة: جناس الاشتقاق بين لفظي: (أقسطوا، المقسطين)، حيث يرجع هذا اللفظان إلى أصل واحد في الاشتقاق، والجناس يثري المعنى.

ومن خلال هذا النظم القرآني البليغ تتجلى عظمة الخالق وروعة تهيئته لنفوس المؤمنين وتحسين سلوكهم بإرشادهم إلى كيفية حل المشكلات التي تواجههم، وأول ما قد يؤثر على الأمة هو التنازع بين طائفتين؛ فكان الأمر بوجوب الإصلاح بين الفئتين المتقاتلتين بالدعوة إلى الاحتكام إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) وبالتقريب بين وجهات النظر، فإن تعدت إحداهما على الأخرى وجب قتالها حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه، فإن اهتدت وعادت إلى أمر الله وجب الإنصاف والعدل بينهما؛ لأن الله يحب العادلين المتبعين حكم الله.

لذا ابتديء بهذه المشكلة التي تمس المجتمع بأكمله، ثم انتقل بعد ذلك إلى المشكلات النفسية التي قد تصيب المؤمن وعمد الخطاب القرآني بأسلوبه وبلاغته إلى تطهير المؤمن من هذه الصفات التي تبعد عن السلوك القويم.

٢- اتساع دائرة الانتماء في المجتمع الإسلامي

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)﴾

يجب على المؤمن أن يعلم أنه فرد ضمن مجتمع كبير، وهذا يميزه عن غيره بالبعد عن التعصب، إذ يجب أن تربط بين أفراد المجتمع الإسلامي

(١) فتح القدير ٥/٧٤، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٨/١٢٠.

علاقات الأسرة الواحدة تحت راية أخوة الدين والإيمان، وإخوة الدين قائمة مهما حصل من تقاتل أو نزاع أو اختلاف في وجهات النظر، كما أرشد إلى ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلاً: "مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"(١).

وبتأمل الآية الكريمة لاستخراج بعض القطوف البلاغية، يتبين أن الآية ترتبط بالآية السابقة ارتباطاً وثيقاً، وتتناسب كذلك مع الهدف العام للسوة، وفيها تنقية للمجتمعات وضبط للسلوك النفسي والاجتماعي.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

و"الإخْوة جمع الأخ من النسب، والإخْوان جمع الأخ من الصداقة"(٢)،

والجملة: استئناف لتقرير وتأكيد أخوة المؤمنين، فهي: "استئناف مقرر لما قبله من الأمر بالإصلاح، أى: أنهم منتسبون إلى أصل واحد هو الإيمان الموجب للحياة الأبدية، كما أنها تعليل لإقامة الإصلاح بين المؤمنين إذا استشرى الحال بينهم، وبيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الأخوّة ولم يبرز عليها لم ينقص عنها ولم يتقاصر عن غايتها، وقد بني هذا التعليل على اعتبار حال المسلمين بعضهم مع بعض كحال الإخوة"(١).

---

(١) صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، ١٩٩٩/٤ برقم (٢٥٨٦)، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) لسان العرب مادة: (أخا).

(١) الكشاف ٣٦٦/٤، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢٠/٨، التحرير والتنوير ٢٤٣/٢٦ بتصرف.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ تشبيه بليغ محذوف الوجه والأداة حيث شبه المؤمنون بالإخوة، ووجه الشبه: الانتساب إلى أصل واحد، والقصر بـ ﴿**إِنَّمَا**﴾ أفاد: تأكيد المعنى؛ فأخوة الإيمان أقوى من أخوة النسب، ورابطة الإخوة يجب أن تمنعهم عن القتال، فما المؤمنون إلا إخوة.

وتتجلى بلاغة النظم القرآني في التعبير عن وجوب وجود الأخوة بين المؤمنين باستخدام ﴿**إِنَّمَا**﴾ دون غيرها من أدوات القصر؛ لأن (إنما) كما قال الإمام عبد القاهر الجرجاني: " تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لا ينزل هذه المنزلة، تفسير ذلك أنك تقول للرجل: (إنما هو أخوك) و(إنما هو صاحبك القديم): لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويقر به، إلا أنك تريد أن تنبهه للذي يجب عليه من حق، الأخ وحرمة الصاحب"[(١)]، فوجب أن تكون أخوة الإيمان أمراً قد استقر في نفوس المؤمنين لا يحيدون عنه، قال الزمخشري: "والمعنى: ليس المؤمنون إلا إخوة، وأنهم خلص لذلك متمحضون"[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ يتلاحم معناه مع معنى الآية الأولى؛ لأن المؤمنين لن يكونوا إخوة إلا إذا اجتمعوا على طاعة الله ورسوله.

---

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، ٣٣٠، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(٢) الكشاف ٣٦٦/٤.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿**فَأَصْلِحُوا**﴾ للتعقيب، فأخوة الإيمان رابط قوي يقتضي الإصلاح بين المؤمنين، إن ديننا الحنيف يدعو إلى الصفاء الذي لا كدر فيه، وأي كدر هذا الذي يمكن أن يوجد بين الأخوين؟!

ووضع المظهر مقام المضمر في قوله تعالى: ﴿**بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾ ولم يقل: (بينهم)؛ "للمبالغة فى التقرير والتخصيص وتأكيد وجوب الإصلاح والتحضيض عليه، [ذكر ذلك أهل التأويل]"(١).

خلافاً لصاحب التحرير والتنوير الذي رأى أن هذا التعبير ليس من قبيل وضع الظاهر موضع الضمير، حيث قال: "لما تقرر معنى الأخوة بين المؤمنين كمال التقرر عدل عن أن يقول: فأصلحوا بين الطائفتين، إلى قوله: بين أخويكم فهو وصف جديد نشأ عن قوله: إنما المؤمنون إخوة، فتعين إطلاقه على الطائفتين فليس هذا من وضع الظاهر موضع الضمير فتأمل"(٢).

والذي ترتاح إليه النفس هو الرأي الأول الذي ذهب إليه بعض أهل التأويل؛ لبعده عن التكلف في استجلاب المعنى مع عدم قصوره في أدائه والتعبير عنه، إضافة إلى أن إظهاره وتخصيصه يحدث تأثيراً قوياً في نفس السامع حين يقربهم إليه بضمير الخطاب، والله أعلم.

وخصص الاثنين بالذكر فقال: ﴿**بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾ ولم يقل: (إخوانكم)؛ "لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بالطريق الأولوية لتضاعف الفتنة والفساد فيه، إذ أن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان، فإذا لزمت المصالحة بين

---

(١) تفسير البيضاوي ٢١٦/٥، حاشية الشهاب على البيضاوي ٧٨/٨، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢٠/٨، بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير ٢٤٥/٢٦.

الأقل كانت بين الأكثر ألزم؛ لأنّ الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين"[١]، ورأى صاحب التحرير والتنوير أن سبب ذلك هو:"مراعاة لكون الكلام جارياً على طائفتين من المؤمنين فجعلت كل طائفة كالأخ للأخرى"[٢].

ثم الوصل بالواو بين جملة: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وجملة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ للتوسط بين الكمالين، حيث الاتفاق في الإنشائية لفظاً ومعنى، مع وجود المناسبة التامة بينهما، وعدم وجود مانع من الوصل.

والمعنى: "وَاتَّقُوا اللَّهَ فإنكم إن فعلتم لم تحملكم التقوى إلا على التواصل والائتلاف، والمسارعة إلى إماطة ما يفرط منه، وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة اللّه إليكم، واشتمال رأفته عليكم حقيقاً بأن تعقدوا به رجاءكم"[٣].

وقد لمح الإمام الفخر الرازي في قوله تعالى: **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾** إشارة لطيفة، وهي: أن التعبير بهذه الجملة فيه: "إشارة إلى ما يصونهم عن التشاجر؛ لأن من اتقى الله شغله تقواه عن الاشتغال بغيره، ولهذا قال النبي (صلى الله عليه وسلم): "المسلم من سلم الناس من لسانه ويده"[٤]؛ لأن المسلم يكون منقاداً لأمر الله... فيشغله عيبه عن عيوب الناس ويمنعه أن يرهب الأخ المؤمن"[١].

والتعبير بقوله: (إنما المؤمنون إخوة) إشعار بضرورة وجود التراحم بين المؤمنين فإذا هم تراحموا فيما بينهم عاملهم الله بلطفه ورحمته، لذا

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢١/٨، الكشاف ٣٦٦/٤.
(٢) التحرير والتنوير ٢٤٥/٢.
(٣) الكشاف ٣٦٦/٤.
(٤) صحيح البخاري ١١/١، حديث رقم: (١٠).
(١) مفاتيح الغيب ١١١/٢٨.

ختمت الآية الكريمة بجملة: (واتقوا الله لعلكم ترحمون) فسياق الآيات يناغي بعضه بعضاً ويتقارب معناه من جهات تتجلى للمتأمل والمتدبر.

٣-تعميق وتوثيق الأخوة الإيمانية

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)﴾

علاقة الآية بما قبلها، وحركة المعنى داخل السورة الكريمة:

بعد أن أكد سبحانه وتعالى إخوة المؤمنين، بين كيف يكون تعميق هذه الأخوة الإيمانية ومراعاة حقوق الآخرين، وذلك بالإرشاد إلى السلوكيات التي يتم بها ذلك، و"لما اقتضت الأخوة أن تحسن المعاملة بين الأخوين كان ما تقرر من إيجاب معاملة الإخوة بين المسلمين يقتضي حسن المعاملة بين آحادهم، فجاءت هذه الآيات منبهة على أمور من حسن المعاملة قد تقع الغفلة عن مراعاتها لكثرة تفشيها في الجاهلية لهذه المناسبة، وهذا نداء رابع أريد بما بعده أمر المسلمين بواجب بعض المجاملة بين أفرادهم"[(١)]، والمجاملة هنا لا معنى لها إلا مراعاة حقوق الآخرين واحترام الخصوصيات.

(١) التحرير والتنوير ٢٤٦/٢٦.

والنداء بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ...**﴾ "ينهى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم"(١).

فالنظم القرآني عبر من خلال هذا النداء المقترن بالنهي وحث المؤمنين وأرشدهم إلى مراعاة حقوق بعضهم البعض؛ من أجل توثيق روابط المحبة بينهم.

والنهي عن السخرية في الآية الكريمة خص به سخرية ﴿**قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ** ﴾

المراد بالقوم "جماعة الرجال في الأصل دون النساء...، وفي عامة القرآن أريدوا به والنساء جميعاً، وحقيقته للرجال لما نبه عليه قوله: ﴿الرِّجال قوّامونَ عَلى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللهُ به بَعْضهُم عَلى بَعْض﴾ الآية [النساء/٣٤]"(٢).

"والقوم مختص بالرجال؛ لأنهم القوام على النساء؛ ولأنهن توابع لرجالهن"(٣)؛ لذا نص على نهي الرجال عن السخرية ثم عطف بنهي النساء، "والنساء والنسوان والنسوة: جمع المرأة من غير لفظها، كالقوم في جمع المرء"(١)، وقوله تعالى:﴿وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾: إيجاز بحذف المسند احترازاً عن العبث، وتقدير الكلام: ولا يسخر نساء من نساء.

والتعبير بصيغة الجمع دون الإفراد، فلم يقل: رجل من رجل، ولا امرأة من امرأة؛ أفاد الكثرة، وكما قال أهل التأويل؛ "لغلبة وقوع السخرية فى

---

(١) مختصر تفسير القرآن العظيم المسمى: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ٣١٧/٣.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (قوم)، ٢٣٧/٢.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢١/٨، الكشاف ٣٨٦/٤.

(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (نسى)، ٢٣٧/٢.

المجمع، وإعلاماً بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائهم على السخرية، واستفظاعاً للشأن الذي كانوا عليه"[١].

ولمح الزمخشري سراً لطيفاً من أسرار التعبير بالإفراد دون الجمع، حيث علل ذلك أيضاً بأن:"مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله، ولا يأتى ما عليه من النهى والإنكار، فيكون شريك الساخر وتلوه في تحمل الوزر، وكذلك كل من يطرق سمعه فيستطيبه ويضحك به[٢]"، وأضاف الشهاب: "فالسخرية ذكر نقائص المرء بحضرته على وجه يضحك منه وهي في الأغلب بمحضر من الناس فعبر عنهما بالقوم لكون كل منهما في جماعة سواء كانت في جماعة المسخور منه جماعة الساخر، أو لا فكم من ملتذ بها وكم من متألم منها فجعل ذلك بمنزلة تعدد الساخر والمسخور منه"[٣].

وتنكير المسند إليه: ﴿قَوۡمٌ﴾، ﴿نِسَآءٌ﴾؛ . لعموم الخطاب القرآني، فالمقصود بالخطاب من بحضرة النبي (صلى الله عليه وسلم) ومن بعده من المؤمنين إلى يوم الدين، وذهب بعض أهل التأويل[١] إلى سبب آخر إضافة إلى التعميم، وهو: القصد إلى نهى بعضهم عن سخرية بعض بمعنى أن تصير كل جماعة منهم منهية عن السخرية.

ويستمر النظم القرآني في التعبير عن المعنى وتوعية المؤمنين بخطة الإصلاح الشاملة مستخدماً الأساليب الإنشائية، وللأساليب الإنشائية دور قوي في جذب انتباه المتلقي، وإثارة وجدانه.

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢١/٨، الكشاف ٣٨٦/٤.
(٢) الكشاف ٣٨٦/٤.
(٣) حاشية الشهاب على البيضاوي ٧٨/٨.
(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢١/٨، الكشاف ٣٨٦/٤، بتصرف.

وتفصل جملة: ﴿**عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ**﴾ عما قبلها؛ لكونها استئنافاً لبيان العلة فيما نُهِي عنه، وكأن سائلاً سأل: ما العلة في النهي عن السلوكيات المذكورة في الآية؟ فأتى الجواب بدون عاطف، "تعليل للنهى أو لموجبه، أي: عسى أن يكون المسخور منهم خيراً عند الله تعالى من الساخرين"(١).

والجملتان: ﴿**عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ**﴾ و﴿**عَسى أَنْ يَكُن خَيْراً مِنْهُن**﴾ اعتراض، والجمل الاعتراضية "توظف في مقام بسط الكلام وتفسيره وتحليله"(٢)، والمقام هنا مقام تنبيه وحث وإرشاد، وهو مقام يستدعي بسط الكلام، "والمعنى: وجوب أن يعتقد كل أحد أن المسخور منه ربما كان عند اللّه خيراً من الساخر؛ لأنّ الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا علم لهم بالخفيات، وإنما الذي يزن عند اللّه: خلوص الضمائر وتقوى القلوب"(١)، فيجب على المؤمنين مراعاة حقوق بعضهم بعضا، والله تعالى مطلع على السرائر، والتقوى ميزان الإيمان، وبهذا فإن هذه الآية الكريمة تسهم بمعناها في تفصيل وتوضيح وبسط الكلام في الآية (١٣) حيث يقول فيها رب العالمين: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ فالتقوى ميزان الإيمان، وبهذا يتضح تلاحم المعنى في السورة الكريمة ودورانه حول مقصدها.

وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ**﴾ عطف على النهي السابق: ﴿**لَا يَسْخَرْ...**﴾ ، وهذا الوصل بين الجمل؛ لاتفاقها في الإنشائية، مع الاتفاق في الحكم الإعرابي، وبهذه المناسبة فلا مانع من

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢١/٨.

(٢) مختارات من النصوص العربي، دراسة بلاغية نقدية، د. عزيزة عبد الفتاح الصيفي، ١٧٧، مطابع الحصري.

(١) الكشاف ٣٨٦/٤.

الوصل، فجميعها من منبع واحد هو الحث على بعض القيم المعينة على إصلاح السلوك النفسي والاجتماعي.

والسلبيات المنهي عنها بعد السخرية هي اللمز والتنابز بالألقاب، و"اللمز: الاغتياب وتتبع المعاب. يقال: لمزه يلمزه ويلمزه. قال تعالى: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ [التوبة:٥٨]، ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾[التوبة:٧٩]، ﴿**وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ**﴾ [الحجرات:١١] أي: لا تلمزوا الناس فيلمزونكم، فتكونوا في حكم من لمز نفسه"(١)، و"النبز: التلقيب"(٢)، "واللقب ضربان: ضرب على سبيل التشريف كألقاب السلاطين، وضرب على سبيل النبز، وإياه قصد بقوله: ﴿ **وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ**﴾ [الحجرات:١١]"(١).

"أى: ولا يدع بعضكم بعضًا بلقب السوء، فإن النبز مختص به عرفاً"(٢).

"وكان هذا من أمر الجاهلية فنهى الله تعالى عنه،... وقالوا في تفسير الآية: هو أن يقول للمسلم يا يهودي أو يا نصراني فينسبه إلى ما تاب منه"(٣).

وذكر الزمخشري أن: "التلقيب المنهي عنه، وهو ما يتداخل المدعوّ به كراهة؛ لكونه تقصيراً به وذمّاً له وشيناً، فأما ما يحبه مما يزينه وينوّه به فلا بأس به... ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصدّيق، وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد اللّه، وخالد بسيف اللّه. وقلّ من المشاهير في الجاهلية والإسلام من

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (لمز)، ٣٤٦/٢.
(٢) السابق، مادة: (نبز)، ٤٠١/٢.
(١) السابق، مادة: (لقب)، ٣٤٢/٢.
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢١/٨.
(٣) الفروق اللغوية ٢٩، بتصرف.

ليس له لقب، ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجرى في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير"[١].

وتنادي المعاني في السورة الكريمة بعضها بعضاً، فقوله تعالى: ﴿**بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ**﴾ يتناسب معناه مع قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات:٧]، ولما ولتقبيح وجود الفسوق بعد الإيمان عبر النظم بفعل الذم: (بئس).

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)**﴾

عنى الإسلام عناية كبيرة بحسن الخلق، وأرسل لله تعالى نبينا محمداً (صلى الله عليه وسلم) ليتمم مكارم الأخلاق، فعلى المسلمين التحلي بالخلق الحميد والسلوكيات الإيجابية من أجل النهوض بالمجتمعات، والتحلي بجميل الأخلاق دليل وسطية الإسلام.

وهذا نداء آخر للمؤمنين ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا**﴾ افتتحت به الآية الكريمة، "وقد أعيد النداء للمرة الخامسة؛ لاختلاف الغرض والاهتمام به وذلك أن المنهيات المذكورة بعد هذا النداء من جنس المعاملات السيئة الخفية التي لا يتفطن لها من عومل بها فلا يدفعها فما يزيلها من نفس من

(١) الكشاف ٣٦٩/٤.

عامله بها"[١]، قال البقاعي: "(يا أيها الذين آمنوا) أي: اعترفوا بالإيمان وإن كانوا في أول مراتبه"[٢]

وفي اقتران هذا النداء بالأمر والنهي معاً: ﴿**اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**﴾ تأكيد على خطورة وعظم ما يدعوهم إليه، "والإثم: الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب. ومنه قيل لعقوبته: الأثام، فعال منه : كالنكال والعذاب والوبال"[٣]، و"أصل الجس: مس العرق وتعرف نبضه للحكم به على الصحة والسقم، وهو أخص من الحس، فإن الحس تعرف ما يدركه الحس. والجس: تعرف حال ما من ذلك، ومن لفظ الجس اشتق الجاسوس"[١]، "والغيبة: أن يذكر الإنسان غيره بما فيه من عيب من غير أن أحوج إلى ذكره"[٢].

والمراد: الإرشاد إلى هدم السلوكات النفسية التي قد تصيب بعض المؤمنين، أمر الله تعالى باجتنابها صوناً لرابطة الأخوة الإيمانية، ومما تظهر به القيمة البلاغية لهذا المعنى الذي أداه النظم القرآني – من أجل الإصلاح والالتزام– تتابع غير واحد من الأساليب الإنشائية، حيث النداء للتنبيه ثم الأمر باجتناب الظن؛ للتحذير من الوقوع في الإثم بسببه؛ لأن بعضه ليس إلا إثماً ثم النهي عن التجسس والغيبة، والأمر والنهي هما: "الشقيقان التوأم في أسرة الإنشاء الطلبي، وما يقال في أولهما بالإيجاب يقال

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٥٠.
(٢) نظم الدرر ٧/٢٣٤.
(٣) الكشاف ٤/٣٧٢.
(١) مفردات ألفاظ القرآن ١/١٨٣.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن، كتاب: (الغين)، مادة: (غيب)، ٢/١٦٦.

في ثانيهما بالسلب وبالعكس"[١]، قال ابن كثير: "يقول الله تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليجتنب كثير منه احتياطاً" [٢].

وتنكير المفعول به: ﴿**كَثِيرًا**﴾؛ يفيد معنى البعضية، لإيجاب الاحتياط والتأمل فى كل ظن فإنّ في الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبيين لذلك ولا تعيين، لئلا يجتريء أحد على ظنّ إلا بعد نظر وتأمّل، وتمييز بين حقه وباطله بأمارة بينة، مع استشعار للتقوى والحذر"[١].

فصل بين جملة: ﴿**اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ**﴾ وجملة: ﴿**إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾؛ لشبه كمال الاتصال، إذ الجملة الثانية بمنزلة المتصلة بالجملة الأولى؛ وهي بمثابة استئناف وتعليل، وبين الجملتين سؤال مقدر عن سبب خاص؛ لأنه لما قال جملة: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾ انصرف الذهن بسببها إلى سبب خاص، وهو أن الأمر باجتناب كثير من الظن لا بد أن يكون له سبب ما، "وهذا الضرب يقتضي تأكيد الحكم"[٢]، وتقدير السؤال: ما سبب النهي عن الظن؟ فجاءت الجملة الثانية مؤكدة بإن؛ تنزيلاً لغير السائل منزلة السائل، قال ابن عاشور: "وهذا كناية عن وجوب التأمل في آثار الظنون

---

(١) معجم البلاغة العربية د عبده عبد العزيز قلقيلة نقد ونقض ١٢ ، ط١ – ١٩٩١ دار الفكر العربي.

(٢) مختصر تفسير القرآن العظيم المسمى: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ٣١٨/٣.

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢٢/٨، الكشاف ٣٧١/٤.

(٢) بغية الإيضاح ٢٩٥ .

ليعرضوا ما تفضي إليه الظنون على ما يعلمونه من أحكام الشريعة، أو ليسألوا أهل العلم"[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾

أسلوب إنشائي (نهي) المراد به التحذير من التجسس والغيبة و"النهى عن تتبع عورات المسلمين ومعايبهم والاستكشاف عما ستروه. وعن مجاهد. خذوا ما ظهر ودعوا ما ستره اللّه. وعن النبي (صلى اللّه عليه وسلم)، أنه خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهنّ. قال : يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تتبعوا عورات المسلمين، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع اللّه عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته[١]"[٢].

والغيبة أعم من التتجسس، ومن هنا يتبين جمال النظم في الجمع بين مفردات يتلاحم معانيها ويكمل بعضها بعضاً، قال البقاعي: "ولما كانت الغيبة أعم من التجسس، قال: (ولا يغتب) أي: يتعمد أن يذكر (بعضكم بعضاً) في غيبته بما يكره"[٣].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥١/٢٦.

(١) "عن أبي برزة الأسلمي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»، وقال الألباني: حسن صحيح".

سنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ٢٧٠/٤، رقم: (٤٨٨٠)، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

(٢) الكشاف ٣٧٢/٤.

(٣) نظم الدرر ٢٣٥/٧.

"قال الغزاليّ: ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله. فيتوصل إلى الاطلاع، وهتك الستر، حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه، كان أسلم لقلبه ودينه"(١).

ووصل بين النهيين: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ و﴿لَا يَغْتَبْ﴾؛ لاتفاقهما في الإنشائية، مع وجود المناسبة التامة بينهما، ولا مانع من الوصل.

وجملة: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ استئنافية بينت مدى شناعة وفظاعة الغيبة.

والاستفهام في قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ دل على معنى مجازي هو: التقرير، والمراد: تقرير المؤمنين بمضمون الجملة، أي: لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً، وفيه "تنبيه أن أكل لحم الأخ شيء قد جبلت النفس على كراهتها له وإن تحراه الإنسان"(٢).

والكلمات دالة على المقاصد "مطابقة للمعنى الذي وردت من أجله. فأما جعل الغيبة كأكل لحم الإنسان لحم إنسان آخر مثله، فشديد المناسبة جداً؛ لأن الغيبة إنما هي ذكر مثالب الناس، وتمزيق أعراضهم. وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه؛ لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة"(٣).

وتتلاحم الفنون البلاغية فيظهر التشبيه التمثيلي إلى جوار الأساليب الإنشائية؛ لتوضيح الصورة، فيشبه حال المغتاب الذي ينال من عرض أخيه وهو- أي: أخيه- في غفلة عن ذلك بحال من يأكل لحم أخيه وهو ميت،

---

(١) محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ٥٣٥/٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (كره)، ٢٩٤/٢.

(٣) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) ٥٣٧/٨.

ويعود الأسلوب الإنشائي ثانية، ولكن بطريق آخر هذه المرة، فصيغته (الأمر) بقوله: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ لغرض الإرشاد والحث على التقوى.

وبسبب هذا التلاحم للفنون البلاغية في نظم الآية الكريمة أطال أهل التأويل البحث فيها، وذكروا فيها "مبالغات شتى منها: في قوله تعالى: ﴿**أَحَدُكُمْ**﴾ إشعار بأنه ما من أحد يحب ذلك، وتعليق المحبة بما هو فى غاية الكراهة، وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان وجعل المأكول أخا للآكل كي ينفره، ومنها: أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتاً. وعن قتادة: كما تكره إن وجدت جيفة مدوّدة أن تأكل منها، كذلك فاكره لحم أخيك وهو حي. وانتصب مَيْتاً على الحال من اللحم. ويجوز أن ينتصب عن الأخ"(١).

والفاء في قوله تعالى: ﴿**فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾ هي الفاء الفصيحة، أي: "فقد كرهتموه واستقرّ ذلك. وفيه معنى الشرط، أى: إن صحّ هذا فكرهتموه...، فليتحقق أيضاً أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين. وقريء: فكرهتموه. أي: جبلتم على كراهته"(٢)، والفاء الفصيحة تفيد الإلزام بما بعدها كما صرح به الزمخشري في قوله تعالى: فقد كذبوكم بما تقولون في سورة الفرقان، أي تدل على أن لا مناص للمواجه بها من التزام مدلول جواب شرطها المحذوف"(١).

وعطف جملة: ﴿**فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾ على الجملة قبلها: "عطف على المعنى، كأنّه لمّا قيل لهم: أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً قالوا: لا، فقيل لهم

---

(١) الكشاف ٣٧٣/٤، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢٢/٨، التحرير والتنوير ٢٥٥/٢٦، بتصرف.

(٢) الكشاف ٣٧٣/٤، ٣٧٤، بتصرف.

(١) التحرير والتنوير ٢٥٥/٢٦.

لمّا قالوا لا: فكرهتموه، أي: كرهتم أكل لحمه ميتاً، فكما كرهتم أكل لحمه ميتاً فكذلك فاكرهوا غيبته[١]، فالعطف بعد أن استفهم لتقريرهم بأنه ما من أحد يحب أكل لحم أخيه ميتاً.

وضمير ﴿**كَرِهْتُمُوهُ**﴾ للأكل، وقد جوّز كونه للاغتياب المفهوم منه"[٢].

و"الآية كناية عن حالة الاغتياب، وتصوير لمدى كراهته عند الله، والفعل (كرهتموه) تعدى بنفسه؛ لأنه ذو مفعول واحد قبل التثقيل، تقول: كرهت الشيء فإذا ثقل استدعى زيادة مفعول.

وأما تعديه بإلى فلأنه ضمَّن كرَّه معنى بغّض؛ لأن بغض منقول من بغض إليه الشيء فهو بغيض إليه، كقولك: حبب إليه الشيء فهو حبيب إليه"[٣].

﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ**﴾

"والمعنى: واتقوا اللّه بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه، فإنكم إن اتقيتم تقبل اللّه توبتكم وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين"[١].

وجملة: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ معطوفة على استئناف مقدر، أي: فاكرهوا الظن والتجسس والغيبة واتقوا الله، "ولا يكون قوله: فكرهتموه بمعنى فاكرهوه واتقوا الله؛ لأنّ لفظ الخبر لا يوضع للدعاء في كلّ موضع"[٢].

---

(١) الحجة للقراء السبعة، المؤلف: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي (المتوفى: ٣٧٧هـ)، المحقق: بدر الدين قهوجي - بشير جويجابي، راجعه ودققه: عبد العزيز رباح - أحمد يوسف الدقاق، ٢١٢/٦، دار المأمون للتراث - دمشق / بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.

(٢) حاشية الشهاب على البيضاوي ٨٠/٨.

(٣) الكشاف ٣٧٤/٤.

(١) الكشاف ٣٧٤/٤.

(٢) الحجة للقراء السبعة ٢١٢/٦.

والجملة المصدرة بإن: ﴿**إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ**﴾ استئنافية، تعليل للأمر السابق عليها وتذييل للتذييل؛ لأن التقوى تكون بالتوبة بعد التلبس بالإثم فقيل: (إن الله تواب) وتكون التقوى ابتداء فيرحم الله المتقي، فالرحيم شامل للجميع[١]، فالرحمة تستلزم التوبة لذا تقدم لفظ (تواب) على (رحيم).

والفاصلة مناسبة للمعنى فمجيء لفظ: ﴿**تَوَّابٌ**﴾ بصيغة المبالغة أفاد الكثرة، والمراد كثرة قبوله (سبحانه وتعالى) التوبة من عباده أو "للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده، أو لأنه ما من ذنب يقترفه المقترف إلا كان معفواً عنه بالتوبة، أو لأنه بليغ في قبول التوبة، منزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط، لسعة كرمه"[٢].

و(تواب) تناسب الآية التي ختمت بها؛ لأن الظن والتجسس والغيبة أمور يجب التوبة منها والانصراف عنها وناسب ذلك أن يتوب الله عليهم، "ولكل كلمة مع صاحبتها مقام وليس كل مقام مقال فقط؛ لأن الكلمات بينها تواصل وتقارب وأرحام، هناك علاقة الكلمة بالمقام وعلاقة الكلمة بالكلمة"[١]، ويبرز جمال الفاصلة في كونها جملة اسمية، والتعبير بالجملة الاسمية يفيد استمرارية صدور التوبة والرحمة عنه (سبحانه وتعالى).

خامساً: التواصل الاجتماعي تحت راية التقوى

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾

---

(١) حاشية الشهاب على البيضاوي ٨/٨١، التحرير والتنوير ٢٦/٢٥٧، بتصرف.
(٢) الكشاف ٤/٣٧٤.
(١) آل حم (غافر – فصلت) ٢١٧-٢١٨.

رسخ النظم القرآني لسورة الحجرات قيماً دينية واجتماعية مقبولة لكل إنسان سوي مثل احترام الآخر ومراعاة حقوقه والتواصل الاجتماعي ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، فعلى المسلم أن يلم بثقافة أمته قدر المستطاع كي يستطيع أن يتعاون مع كل أفرادها، وأن يعتز ويفخر بثقافته الإسلامية؛ فإليها يعود السبب في تميز أمته ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾[آل عمران: ١١٠]، أما بالنسبة لثقافات الأمم الأخرى – والتي أصبح من المتاح ومن اليسير جداً الاطلاع عليها في عصرنا هذا فعلى المسلم أن يحكم عليها في ضوء القيم والمباديء الإسلامية، وأن يأخذ منها ما يناسب قيمه ومعتقده الديني ويبعد عما سوى ذلك.

ولأهمية التواصل الاجتماعي يأتي النداء ذا طابع خاص وسمة مميزة عن كل النداءات السابقة حيث يتوجه النداء إلى الناس كافة دون المؤمنين وحدهم، فقوله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ "خطاب لجمع من يعقل"(١)، و(الناس) "لفظ عام من ألفاظ العموم يطلق على الأحياء والأموات، [أما] لفظ الورى فهو للأحياء فقط دون الأموات"(١)، فالخطاب في هذه الآية الكريمة لجميع البشر، وهذا دليل على عالمية الخطاب القرآني وشموله أجناس البشر وامتداده عبر الأزمان، مع تجدد الثقافات وتنوع الحضارات. وذكر ابن عاشور: أن الآية: "انتقال من واجبات المعاملات إلى ما يجب أن يراعيه المرء في نفسه"(٢).

﴿**إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ**﴾

---

(١) البحر المحيط ٢٣٢/١

(١) معجم غريب الفقه والأصول ٦٨ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير ٢٥٩/٢٦.

ومن آياته تعالى: التنوع البشري: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾[الروم: ٢٢]، إنها رسائل سماوية ربانية تدعو للتعاون والتواد والتعارف بين جميع البشر.

وجملة: (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) "كناية عن المساواة في أصل النوع الإنساني"(١)، ويبرز جمال الكناية في تأكيد إثبات المعنى المراد وتقويته.

واعترض بجملة: (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) بين الجملتين: (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) و(إن أكرمكم عند الله أتقاكم)؛ من أجل بث روح الألفة بين الناس والإشعار بأهمية التواصل.

و"الشعب: القبيلة المتشعبة من حي واحد، وجمعه: شعوب، قال تعالى: ﴿شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾[الحجرات:١٣]، والشعب من الوادي: ما اجتمع منه طرف وتفرق طرف"(١).

والعطف بين لفظي: (شعوباً) و(قبائل) أفاد الجمع بين فئات النسب التي يعتمد عليها العرب والمتداولة على ألسنتهم وفي عاداتهم، فهم في تقسيمهم للأنساب بين نسب بعيد هو الشعب ونسب قريب هو القبيلة، قال الطبري: "النسب البعيد من لم ينسبه أهل الشعوب، وذلك إذا قيل للرجل من العرب: من أي شعب أنت؟ قال: أنا من مضر، أو من ربيعة. وأما أهل المناسبة القريبة أهل القبائل، وهم كتميم من مضر، وبكر من ربيعة، وأقرب القبائل الأفخاذ وهما كشيبان من بكر ودارم من تميم، ونحو ذلك"(٢).

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٦١.

(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (شعب)، ١/٥٤٠.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن ٢٢/٣١٠.

﴿لِتَعَارَفُوا﴾ أي: "ليعرف بعضكم بعضا في النسب، يقول تعالى ذكره: إنما جعلنا هذه الشعوب والقبائل لكم أيها الناس، ليعرف بعضكم بعضا في قرب القرابة منه وبعده، لا لفضيلة لكم في ذلك"(١)، "والتعارف يحصل طبقة بعد طبقة متدرجاً إلى الأعلى، فالعائلة الواحدة متعارفون، والعشيرة متعارفون من عائلات إذ لا يخلون عن انتساب ومصاهرة، وهكذا تتعارف العشائر مع البطون والبطون مع العمائر، والعمائر مع القبائل، والقبائل مع الشعوب؛ لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

"الكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة، كمن ينفق مالاً في تجهيز جيش في سبيل الله...، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] فإنما كان كذلك؛ لأن الكرم: الأفعال المحمودة، وأكرمها وأشرفها ما يقصد به وجه الله تعالى، فمن قصد ذلك بمحاسن فعله فهو التقي، فإنّ أكرم الناس أتقاهم، وكل شيء شرف في بابه فإنه يوصف بالكرم"(١).

وفي تفسير البغوي: "قال قتادة: في هذه الآية إن أكرم الكرم التقوى، وألأم اللؤم الفجور"(٢)، وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير: "والمراد بالأكرم: الأنفس والأشرف، .... والأتقى: الأفضل في التقوى وهو اسم تفضيل صيغ من اتقى على غير قياس"(٣).

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن ٣١٢/٢٢.
(٢) التحرير والتنوير ٢٥٩/٢٦.
(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (كرم)، ٢٩٣/٢.
(٢) تفسير البغوي ٢٦٥/٤.
(٣) التحرير والتنوير ٢٦٢/٢٦ بتصرف.

"أي: إن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوى، فمن تلبس بها فهو المستحق لأن يكون أكرم ممن لم يتلبس بها وأشرف وأفضل، فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر بالأنساب، فإن ذلك لا يوجب كرما ولا يثبت شرفا ولا يقتضي فضلاً"(١).

وجملة: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً، وهي تعليل للنهي عن التفاخر بالأنساب، فالمساواة في أصل النوع الإنساني تستدعي أن تكون هناك أمور أخرى يتفاضل بها الناس وتميزهم عن بعضهم البعض، فبينت الجملة الثانية أن التقوى هي وحدها الفضيلة التي يرضاها الله تعالى، فكأن سائلاً سأل: لم لا يتفاخر بالأنساب؟ فكان الجواب: لأن أكرمكم عند الله أتقاكم، والمجيء بأداة التوكيد ﴿**إِنَّ**﴾ أفادت تأكيد مضمون الجملة، من حيث إن الناس يتفاضلون بالتقوى لا بالأحساب، فطاعة الله تعالى واتباع رسوله تزيد الإنسان شرفاً ورفعة لا حسبه ونسبه، والخطاب عام لجميع البشر.

قال ابن عاشور: "وإنما أخرت في النظم عن جملة: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾؛ لتكون تلك الجملة السابقة كالتوطئة لهذه وتتنزل منها منزلة المقدمة؛ لأنهم لما تساووا في أصل الخلقة من أب واحد وأم واحدة كان الشأن أن لا يفضل بعضهم بعضاً إلا بالكمال النفساني وهو الكمال الذي يرضاه الله لهم والذي جعل التقوى وسيلته ولذلك ناط التفاضل في الكرم ب عند الله إذ لا اعتداد بكرم لا يعبأ الله

(١) فتح القدير ٥/٧٩.

به"[١]، والاعتراض بـ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أفاد التأكيد على أن التقوى وحدها هي التي يميز بها الله تعالى بين الناس.

وجملة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

تذييل والجملة مؤكدة بإن، وهي فاصلة مناسبة للمعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾؛ لأنه سبحانه وتعالى عليم بأحوالهم خبير بالنفوس وخبايا القلوب، قال الشوكاني: "إن الله عليم بكل معلوم ومن ذلك أعمالكم خبير بما تسرون وما تعلنون لا تخفى عليه من ذلك خافية"[٢].

والجملة: "كناية عن الأمر بتزكية نواياهم في معاملاتهم وما يريدون من التقوى بأن الله يعلم ما في نفوسهم ويحاسبهم عليه[٣].

حركة المعنى

بعد أن تبين من النظم السابق اتساع دائرة الانتماء في المجتمع الإسلامي، ومن ثم جاء المعنى مؤكداً إخوة الإيمان، وكما نهى الله تعالى في الآيات السابقة عن السلوكيات السلبية التي تهدم المجتمع وتقطع روابط الإخوة مرشداً من خلال ذلك إلى ما يمكن به تعميق وتوثيق الأخوة الإيمانية، جاءت هذه الآية الكريمة: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾؛ لترسخ في نفوس العالمين أن لا وجه للتنافس بينهم إلا بالتقوى، وما اختلافهم في الانتماء إلى شعوب وقبائل وما إلى ذلك إلا ليتعارفوا فيما بينهم وليتعاونوا مع بعضهم البعض تظلهم راية التقوى.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٢/٢٦.
(٢) فتح القدير ٧٩/٥.
(٣) التحرير والتنوير ٢٦٢/٢٦.

سادساً: إحسان العمل وإتقانه

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٤)﴾

ينكر الله تعالى على الأعراب ادعاءهم الإيمان، وهو لم يتمكن في قلوبهم بعد وما زالوا حديثي عهد بالإسلام، و"الإيمان : هو التصديق مع الثقة وطمأنينة النفس. والإسلام : الدخول في السلم. والخروج من أن يكون حربا للمؤمنين بإظهار الشهادتين. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فاعلم أنّ ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان[١].

وفي هذا النظم القرآني تكذيب لدعواهم، فهم لم يؤمنوا حقاً، ويستفاد من الآية: الإرشاد إلى إحسان العمل وإتقانه ويكون ذلك بالصدق مع النفس، فشرعنا يقدر العمل الشريف ويثيب عليه، بدليل: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾.

مناسبة الآية لما قبلها

لما ختم الله تعالى الآية السابقة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ جاءت هذه الآية الكريمة مؤكدة علمه بما في قلوب العباد من أمور يخفونها لكنه تعالى مطلع عليها، كما أنه تعالى لما ذكر التقوى، والتقوى محلها القلب كما جاء في الحديث الشريف: "التقوى ههنا"[٢] ويشير إلى صدره ثلاث مرات،

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (ليت)، ٢/ ٣٥٠.

(٢) "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره التقوى هاهنا» ويشير إلى صدره ثلاث مرات «بحسب =

فالحرص على أن يكون القلب عامراً بالإيمان وعدم الاكتفاء بالإسلام باللسان من طاعة الله ورسوله.

﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا**﴾ "العرب: ولد إسماعيل، والأعراب جمعه في الأصل، وصار ذلك اسماً لسكان البادية"[١]، والمقصودون هنا "بنو أسد أظهروا الإسلام في سنة مجدبة يريدون الصدقة، فأمر الله سبحانه رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يرد عليهم فقال: قل لم تؤمنوا أي: لم تصدقوا تصديقاً صحيحاً عن اعتقاد قلب وخلوص نية وطمأنينة ولكن قولوا أسلمنا أي: استسلمنا خوف لقتل والسبي أو للطمع في الصدقة، وهذه صفة المنافقين لأنهم أسلموا في ظاهر الأمر ولم تؤمن قلوبهم.... قال الزجاج: الإسلام: إظهار الخضوع وقبول ما أتى به النبي، وبذلك يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان وصاحبه المؤمن"[٢].

=

امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه". المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، ١٩٨٦/٤، حديث رقم: (٢٥٦٤)، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (عرب)، ٧٩/٢.

(٢) فتح القدير ٥/ ٧٩، ٨٠ بتصرف.

"وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة"(١)، فالإسلام قول باللسان، والإيمان تصديق بالقلب.

ومن بلاغة النظم القرآني الدقة في التعبير باللفظ المناسب وصولاً للمعنى على أتم وجه، فالمجيء بلفظ (الأعراب) معرفاً تعريف العهد يعني أن القول خاص بأعراب قصدهم القرآن تحديداً دون غيرهم، وهم بنو أسد.

"وقد يُطلق الإسلام على الإذعان والقبول الظاهري لما جاء به النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ومن هنا كان الإيمان أعلى درجة من الإسلام؛ لأن الإيمان تصديق الباطن والإسلام إقرار الظاهر، وهذا المعنى ناظر إلى بعض المواقف والمقامات التي تحدد فيها الإسلام بهذا المدلول، وأهم ذلك قصة الأعراب الذين قالوا آمنا، فأمر النبي عليه السلام بأن يقول لهم: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[الحجرات: ١٤]"(١).

وبين (آمنا) و(لم تؤمنوا)، طباق سلب يبرز المعنى ويوضحه.

قوله: ﴿**لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾

أُمِرَ النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يُكذِّبهم بأسلوب مهذب، حيث لم يؤمر أن يقول لهم: (كذبتم)، ثم نبه على هذا في الآية التالية بقوله: (أولئك هم الصادقون) تعريضاً بكذب هؤلاء الأعراب.

---

(١) مختصر تفسير القرآن العظيم المسمى: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ٣/٣٢١.

(١) من أسرار التعبير القرآني (دراسة تحليلية لسورة الأحزاب) ٣٠٩-٣١٠.

وإيثار مجيء النظم على هذا النحو: (لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا)، ولم يقل: (لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا) أو: (لم تؤمنوا ولكن أسلمتم)، قال أهل القرآن: "روعي في هذا النوع من التكذيب أدب حسن لم يصرح بلفظه فلم يقل: (كذبتم)، ولو قال: (لا تقولوا آمنا) لكان نهياً عن القول بالإيمان، وهو غير مناسب لمقام الشارع المبعوث للدعوة إلى الإيمان فلا يناسبه مقام النهي عنه وعن القول به فكان هذا للاحتراز من النهى عن التلفظ بالإيمان، ولو قال: (ولكن أسلمتم) كان جزماً بإسلامهم واعتباراً له، والحال أنه فقد شرط اعتباره شرعاً، وهو التصديق القلبي ثم نبه على ما فعل في قوله في صفة المخلصين: (أولئك هم الصادقون) تعريضاً بأن هؤلاء هم الكاذبون، ورب تعريض لا يقاومه التصريح"[١].

وقيل إن الكلام من قبيل "الاحتباك، وأصله: (لم تؤمنوا فلا تقولوا آمنا ولكن أسلمتم فقولوا: أسلمنا) فحذف من كل منهما نظير ما أثبت في الآخر...، والحاصل أنه روعي فيه المطابقة المعنوية مع رعاية الأدب والعدول عن تكذيبهم صريحاً المورث للعناد"[٢].

و(لكن) للاستدراك، وجيء بها "لرفع ما يتوهم من قوله: (لم تؤمنوا) أنهم جاؤوا مضمرين الغدر بالنبي (صلى الله عليه وسلم). وإنما قال: (ولكن قولوا أسلمنا) تعليماً لهم بالفرق بين الإيمان والإسلام"[٣]، وناسب هذا مجيء الآية بعدها: (إنما المؤمنون الذين ...) ببيان الإيمان الحقيقي الصادق.

---

(١) الكشاف ٣٧٧/٤، حاشية الشهاب على البيضاوي ٨٠/٨، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢٣/٨، بتصرف.
(٢) حاشية الشهاب على البيضاوي ٨٠/٨.
(٣) التحرير والتنوير ٢٦٤/٢٦.

وقوله: (لما يدخل الإيمان) الجملة المنفية بلما في محل نصب حال، ومن لطائف النظم القرآني في الآية الكريمة التعبير بـ (لمّا) دون (لم) التي تفيد نفي دخول الإيمان في قلوبهم، و(لم) و(لما) كل منهما نافية جازمة تختص بالمضارع وتقلبه ماضياً، إلا أن (لمّا) غير (لم) في أنها تفيد معنى التوقع، بمعنى: لم يدخل الإيمان في قلوبهم بعد لكن دخوله متوقع، وربما دخل الإيمان الصادق قلوب هؤلاء فيما بعد.

وفي قوله: (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) تجسيد للإيمان حيث أضفى عليه من صفات الأحياء حين شبه الإيمان بإنسان داخل إلى مكان ما ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه (يدخل) على سبيل الاستعارة المكنية، قال ابن عاشور: "واستعير الدخول في قوله: (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) للتمكن وعدم التزلزل؛ لأن الداخل إلى المكان يتمكن ويستقر والخارج عنه يكون سريع المفارقة له"(١).

﴿لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾

"يقال: لاته عن كذا يليته: صرفه عنه، ونقصه حقاً له، ليتاً. قال تعالى: ﴿لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات:١٤] أي: لا ينقصكم من أعمالكم، لات وألات بمعنى نقص، وأصله: رد الليت، أي: صفحة العنق"(٢).

وحذف المسند إليه في **(يَلِتْكُمْ)**، وهو ضمير مستتر تقديره: (هو) عائد على لفظ الجلالة (الله)؛ للعلم به، بدليل **عدم قوله: (يلتاكم)** بعود الضمير إلى الله ورسوله؛ لأن الثواب والعقاب لا يصدران إلا من الله تعالى.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٦٥.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (ليت)، ٢/٣٥٠.

والفاصلة: (إن الله غفور رحيم) تناسب المعنى في قوله تعالى: (لا يلتكم من أعمالكم شيئاً)؛ لأنهم إن أطاعوا الله ورسوله استحقوا غفرانه ورحمته، فالله (غفور) يغفر لهم ما ادّعوه كذباً، و(رحيم) بهم لا ينقصهم من عملهم شيئاً، قال الشوكاني في تفسيره: "إن الله (غفور): مبالغ في مغفرة فرطات العباد، (رحيم): مبالغ في إفاضة شابيب الرحمة عليهم"(١). قال الشوكاني: "إن الله غفور أي: بليغ المغفرة لمن فرط منه ذنب رحيم بليغ الرحمة لهم"(١).

والجملة (إن الله غفور رحيم) مؤكدة بإن: وهي في موقعها تذييل وتعليل للوعد الذي وعدهم الله تعالى به من أنه لا ينقصهم من أعمالهم شيئاً إن هم لزموا طاعة الله ورسوله، و"استئناف تعليم لهم بأن الله يتجاوز عن كذبهم إذا تابوا، وترغيب في إخلاص الإيمان لأن الغفور كثير المغفرة شديدها، ومن فرط مغفرته أنه يجازي على الأعمال الصالحة الواقعة في حالة الكفر غير معتد بها فإذا آمن عاملها جوزي عليها بمجرد إيمانه وذلك من فرط رحمته بعباده، وترتيب رحيم بعد غفور لأن الرحمة أصل للمغفرة وشأن العلة أن تورد بعد المعلل بها(٢).

سابعاً: صدق الإيمان والثبات عليه

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)﴾

يتبين من خلال النظم القرآني في الآية الكريمة –إلى جانب التعريض– حقيقة الإيمان الصادق والثبات عليه ثم دعوة المؤمنين إلى

---

(١) روح المعاني ٢٢٤/١٨.
(١) فتح القدير ٨٠/٥.
(٢) التحرير والتنوير ٢٦٦/٢٦.

التجارة الرابحة مع الله، وهذا المعنى تماماً يتناسب مع قوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الصف:١٠، ١١].

والآية: "تعليل لقوله: لم تؤمنوا إلى قوله: في قلوبكم وهو من جملة ما أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأن يقوله للأعراب، أي ليس المؤمنون إلا الذين آمنوا ولم يخالط إيمانهم ارتياب أو تشكك"(١).

(إنما) للحصر تفيد القصر والتخصيص، فالنظم القرآني في الآية موجه للمؤمنين خاصة، وهو قصر إضافي، أي: هؤلاء هم المؤمنون من كانوا على هذه الصفات، وهم غير أولئك الأعراب المدعين.

"وإذ قد كان القصر إضافياً لم يكن الغرض منه إلا إثبات الوصف لغير المقصور لإخراج المتحدث عنهم عن أن يكونوا مؤمنين، وليس بمقتض أن حقيقة الإيمان لا تتقوم إلا بمجموع تلك الصفات"(٢).

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾

الجملة تشير بمعناها إلى جملة: (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم)، والاعتراض بها أفاد تأكيد إيمانهم ورسوخه في نفوسهم، فالريبة: "تدل على دغل وقلة يقين"(٣)، وعدم الارتياب معناه: الرسوخ والثبات، فالمؤمن الحقيقي هو الذي لا يشك في صدق عقيدته ويقر بأنها الحق، قال الراغب الأصفهاني: "رسوخ الشيء: ثباته ثباتاً متمكناً،... ورسخ تحت الأرض،

(١) التحرير والتنوير ٢٦، ٢٦٧.
(٢) التحرير والتنوير ٢٦، ٢٦٨.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن، كتاب: (الراء)، مادة: (ريب)، ٤٠٢/١.

والراسخ في العلم: المتحقق به الذي لا يعرضه شبهة. فالراسخون في العلم هم الموصوفون بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[الحجرات:١٥]"[١].

وعطف جملة: ﴿**جَاهَدُوا**﴾ على﴿**آَمَنُوا**﴾ "تنويه بفضل المؤمنين المجاهدين، وتحريض الذين دخلوا في الإيمان على الاستعداد إلى الجهاد"[٢]، وبينهما توسط بين الكمالين؛ لاتفاق الجملتين في الخبرية، مع التناسب في الفعلية والمضي، ولا مانع من الوصل، مع قصد التشريك في الحكم الإعرابي، والعطف بينهما بالواو أفادت الجمع بين الإيمان بالله ورسوله والاستعداد للجهاد في سبيل الله من أجل أن يتحقق صدق الإيمان.

والتعبير بالفعلين الماضيين: (آمنوا) و(جاهدوا) دل على ثبوت ذلك لهم من الإيمان الصادق والاستعداد التام للجهاد، ونفي الريبة عنهم باستخدام الفعل المضارع (لم يرتابوا) نفي لاستمرارية حدوث الريبة في المستقبل، وفي العطف بـ(ثم) التي تفيد التراخي "إشارة إلى أن انتفاء الارتياب في إيمانهم أهم رتبة من الإيمان إذ به قوام الإيمان"[٣].

﴿**فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ "أي: في طاعته وابتغاء مرضاته"[٤]، فالجهاد بالمال والنفس يكون في سبيل الله وحده.

وقوله: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ "أي: في قولهم آمنا، حيث طابقت ألسنتهم عقائدهم، وظهرت ثمرة ذلك عليهم بالجهاد بالنفس والمال. وفي سبيل اللّه يشمل جميع الطاعات البدنية والمالية ، وليسوا كأعراب بني أسد

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن مادة: (رسخ)، ٣٩٩/١.
(٢) التحرير والتنوير ٢٦، ٢٦٨.
(٣) التحرير والتنوير ٢٦، ٢٦٨.
(٤) فتح القدير ٨٠/٥ .

في قولهم آمنا ، وهم كاذبون في ذلك"[١]. وأسلوب القصر، أفاد حصر الصدق في هؤلاء المذكورين، والقصر إضافي، والمعنى: هؤلاء هم الصادقون الذين يستحقون الاتصاف بصفة الإيمان لا أنتم.

ثامناً: الرقابة الدائمة من الله (عزوجل) للمؤمنين.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨)﴾

تتضح حركة المعنى في الآيتين الأولتين إذ يعود بهما المعنى إلى الآية الأولى من طاعة الله ورسوله والتزام الأدب معهما.

"قال بعضهم: التعليم: تنبيه النفس لتصور المعاني، والتعلم: تنبه النفس لتصور ذلك، وربما استعمل في معنى الإعلام إذا كان فيه تكرير، نحو: ﴿أتعلمون الله بدينكم﴾ [الحجرات:١٦]" [٢].

والاستفهام في قوله: (أتعلمون الله بدينكم) إنكاري توبيخي، والمقصود: أن الله تعالى ينكر على المخاطبين موبخاً إياهم ادعاءهم الإيمان، فهو وحده يعلم السر وما يخفى، "وفيه تجهيل لهم"[٣].

"والتعبير عنه بالتعليم لغاية تشنيعهم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض حال من مفعول تعلمون مؤكدة لتشنيعهم وقوله تعالى والله بكل شيء

(١) البحر المحيط ٥٢٤/٩.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن، كتاب: (العين)، مادة: (علم)، ١١٥/٢.
(٣) الكشاف ٣٧٨/٤.

عليم تذييل مقرر لما قبله اى مبالغ في العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ما أخفوه من الكفر عند إظهارهم الإيمان وفيه مزيد تجهيل وتوبيخ لهم"(١).

قوله: قل أتعلمون الله بدينكم قال الشوكاني: "التعليم ها هنا بمعنى الإعلام، ولهذا دخلت الباء في دينكم، أي: أتخبرونه بذلك حيث قلتم: (آمنا) والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض فكيف يخفى عليه بطلان ما تدعونه من الإيمان"(٢).

وباء (بدينكم) زائدة جاءت "لتأكيد لصوق الفعل بمفعوله، كقوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُم﴾"(٣).

جملة: (والله يعلم) في محل نصب حال، وجملة: (والله بكل شيء عليم) في محل نصب معطوفة على جملة الحال، تذييل، والوصل بين الجملتين أفاد تأكيد المعنى والتحذير من ادعاء الكذب، فالله مطلع عليهم ويعلم كل شيء كان أو لم يكن، والوصل من قبيل التوسط بين الكمالين؛ لاتفاق الجملتين المتعاطفتين لفظاً ومعنى مع وجود المناسبة بينهما، ولا مانع من الوصل، وتقدم الجار والمجرور (بكل شيء) تأكيد على شمول علمه وإحاطته بجميع الأشياء، ويختم الآية بقوله: (والله بكل شيء عليم)، فناسبت مقدمة الآيات خاتمتها.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(١٧)﴾

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢٤/٨.
(٢) فتح القدير ٨١/٥.
(٣) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٦٨.

الجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً، حيث جاءت لإبطال دعوى بني أسد، وبهذه الآية يثبت النظم القرآني أن فعلهم كان إسلاماً وليس إيماناً، و"يمنون عليك أن أسلموا أي: يعدون إسلامهم منة عليك، حيث قالوا: جئناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان قل لا تمنوا علي إسلامكم أي: لا تعدوه علي، فإن الإسلام هو المنة التي لا يطلب موليها ثوابا لمن أنعم بها عليه، ولهذا قال: بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان أي: أرشدكم إليه وأراكم طريقه، سواء وصلتم إلى المطلوب أم لم تصلوا إليه"(١)

والمجيء بصيغة المضارع: (يمنون) دلالة على استمرارية صدور هذا الفعل (المن) عن هؤلاء الأعراب، و"المنة منهم بالقول، ومنة الله عليهم بالفعل، وهو هدايته إياهم كما ذكر"(٢)، وما فعلوه كان إسلاماً كما أورده النظم الكريم، ولم يكن إيماناً.

وفي تكرر الفعل (قل) دلالة على أن المتوجه إليه بالخطاب واحد، وهو رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وآثر النظم القرآني الإتيان بلفظ: (إسلامكم) مسنداً إسلام إلى ضمير الخطاب؛ لبيان حقيقة حالهم وأن ما صدر عنهم ليس إلا إسلاما ، بينما جاء بلفظ: (الإيمان) معرفاً بأل؛ "لأنه حقيقة في حد ذاته وأنهم ملابسوها"(٣).

وجملة الشرط: (إن كنتم صادقين) حذف منها جواب الشرط؛ لدلالة ما قبله عليه، وتقدير الكلام: إن كنتم صادقين في ادعائكم فلله المنة عليكم.

---

(١) فتح القدير ٨١/٥.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (منن)، ٣٨٨/٢.

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٧٠.

والفاصلة: (إن كنتم صادقين) تناسب سياق الآية قبلها، ذلك أن الله (عزوجل) امتن عليهم أن هداهم للإيمان، فجاءت (إن) التي تفيد الشك في صدق إيمانه، وكان قد كذب دعوى الأعراب من قبل (قل لم تؤمنوا)، فناسبت الفاصلة السياق.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨)﴾

تتصاعد حركة المعنى بعد طرح هذه المنظومة التربوية الأخلاقية، ليذكر المؤمنين بهذه الرقابة الدائمة من قبل الله (عزوجل) للمؤمنين.

وتتضح وحدة السورة في التقاء آخرها بأولها، فالسورة حددت كثيراً من الآداب الاجتماعية ثم ختمت بعلم الله الغيب وجعلت الفاصلة في نهاية السورة (والله بصير بما تعملون)؛ لاستشعار الرقابة الدائمة من قبل الله (عزوجل)، وبين آياتها ترابط شديد.

والآية وقعت تذييلاً للكلام السابق حتى يتبين للسامعين أن الله على علم بكل شيء، والتأكيد بإن أفاد تأكيد مضمون الآية، كما "أفادت هذه الجملة تأكيد مضمون جملتي: (والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض)، (والله بكل شيء عليم)[الحجرات: ١٦] ولكن هذه زادت بالتصريح بأنه يعلم الأمور الغائبة لئلا يتوهم متوهم أن العمومين في الجملتين قبلها عمومان عرفيان قياساً على علم البشر"(١).

وهكذا يرد السياق القرآني بتقديم السموات على الأرض؛ لحكمة يقتضيها، كقوله تعالى: "إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور"[فاطر: ٣٨]، وعلم ما غاب في السموات أعظم ومما لا يتأتى لأحد ممن زاغت أبصارهم وقلوبهم أن يدعي فيه شيئاً، وتقديم السموات على

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٧١.

الأرض دلالة على عظيم قدرته، فتقدمها مناسب لاقتضاء المقام والكلام قبله: " قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم" فالحديث عن علم الله ما في نفوسهم، فختمت السورة بعلمه تعالى ما هو أعظم من ذلك ألا وهو غيب السموات والأرض جميعاً.

المبحث الثاني

الخصائص الأسلوبية للنظم القرآني في سورة الحجرات

إن النظم القرآني منزه عن كل ما يخل بفصاحته، فالقرآن الكريم كله معجز بأسلوبه، بترابط لفظه ومعناه.

قال الإمام عبد القاهر الجرجاني: "الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليه، وما أشبه ذلك، مما لا تعلق له بصريح اللفظ"[١] و"اللفظ الواحد يقع مقبولا، ومكروها[١].

فالنظم له دوره المميز في إبراز جمال الكلام، والعبرة ليست بالألفاظ وحدها إلا إذا احتوتها التراكيب فيبدو النص حينئذ متلائماً متناسباً ملتحمة معانيه بعضها ببعض، وما بالنا بالقرآن الكريم؟ وهو نص إلهي تنزيل من حكيم حميد عجز الفصحاء عن الإتيان بمثله، فنظمه يختلف عن نظوم البشر.

وإفراد هذا المبحث للخصائص الأسلوبية في سورة الحجرات ليس إلا مجرد محاولة للبحث عما وراء التراكيب من أهداف جليلة ومعان وأغراض عظيمة، وإسهام في الكشف عن بعض جوانب الإعجاز في النظم القرآني علّها تكون نبراس هدى للأدباء والكتاب، تتهذب بها سليقتهم وتقوى لغتهم.

---

(١) دلائل الإعجاز ٤٦.

(١) دلائل الإعجاز ٤٦

وقد سلك النظم في سورة الحجرات منهجاً مناسباً للمعنى العام الأساس والمقاصد الجزئية للسورة، "والمقاصد تظهر في الأبنية والتراكيب وترتيب الآيات"(١).

أولاً: المعجم اللفظي للسورة

تنفرد سورة الحجرات بمعجم لفظي خاص بها، إذا كانت سورة الحجرات تنفرد عن غيرها من السور بكونها خطة إصلاحية شاملة وضعها الشرع لصيانة المجتمع، فقد انفردت بمعجم لفظي خاص بها، ولا غرو فقد جاءت ألفاظها مناسبة لمقتضى الحال ومعبرة من خلال التراكيب عن مقاصد وأغراض السورة، "ومن طرائق التعرف على المعنى، أولاً: حصر الألفاظ التي وقعت في السورة، ولم تقع في سواها وتأمل معناها، وغالباً ما تكون هذه الألفاظ هي المعالم الدالة على توزع المعنى في السورة"(١)، ومن أهم الألفاظ التي اختصت بها السورة الكريمة ما يلي:

ألفاظها الخاصة كثيرة، والتي تدور ضمن إطار التهذيب والتأديب والإرشاد والتوجيه إلى ما فيه الخير للفرد والمجتمع، كقوله: "لا تقدموا"، "لا ترفعوا أصواتكم"، "لا تجهروا له بالقول"، يغضون"، امتحن"، "فأصلحوا"، وأقسطوا"، "تفيء إلى أمر الله"، "لا يسخر"، "لا تلمزوا"، "لا تنابزوا"، "بئس الاسم الفسوق"، "اجتنبوا"، "لا تجسسوا"، لا يغتب"، "لحم أخيه ميتاً".

وتنفرد سورة الحجرات في حديثها عن بيوت النبي بورود لفظ **(الحجرات)**، وتؤكد ألفاظ سورة الحجرات منذ بدايتها جو الأخوة حيث سميت بالحجرات؛ لورود ذلك اللفظ فيها، وقد أطلق عليها اسماً، وهي وإن دلت على حجرات

(١) حركة المعنى في سورة الفجر ١٠.
(١) السابق ١٢.

النبي (صلى الله عليه وسلم) إلا أن في ذلك إيحاءً بضرورة احترام خصوصية الآخرين، فلكل مسكنه الخاص، وعلى كل فرد من أفراد المجتمع الإسلامي احترام خصوصيات الآخرين.

وقد تكررت فيها جملة: **(واتقوا الله)** ثلاث مرات:

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الحجرات: ١] بعد النهي والتحذير من عدم اتباع حكم الله ورسوله، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الحجرات: ١٠] بعد الأمر بقتال الفئة الباغية والإصلاح بالعدل بين المتخاصمين؛ لأن المؤمنين إخوة، وقال عز من قائل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات: ١٢] بعد الأمر باجتناب الظن والنهي عن التجسس والغيبة.

ومن البين بعد هذا أن الأمر بالتقوى تكرر ثلاث مرات في سبيل التأكيد على أهميتها، ويلمح من تكررها فائدة جليلة أيضاً وهي: ضبط سلوكيات المجتمع ومراعاة حقوق النفس وحقوق الآخرين، فالأولى كانت في حق الله ورسوله، والثانية في حق المجتمع، والثالثة في حق النفس وحقوق الآخرين، وفي هذا كله ضبط للسلوكيات النفسية والاجتماعية.

لفظ **(إخوة)**: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠]، ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[الحجرات:١٢]، ولما كانت السورة لها دور في ضبط وإصلاح السلوك النفسي للأفراد والسلوك المجتمعي فمن جماليات التعبير الرباني وبلاغته ودقته في اختيار الألفاظ وجود لفظ الإخوة تعبيراً عن مثل هذا المعنى.

لفظ: **(أصلحوا)** والذي تكرر ثلاث مرات، قال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي

تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[الحجرات: ٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا﴾[الحجرات:١٠].

ولم يكتف الشارع بالأمر بالإصلاح بل قرنه بـ(**العدل**) ثم لم يكتف بذلك في (الحجرات) فعطف عليه الأمر بالقسط، قال تعالى:﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الحجرات:٩]، والعدل وعدم الجور من السلوكيات الاجتماعية التي لا غنى عنها، والأولى أن يتسم بها المجتمع الإسلامي.

وهكذا فقد تضافرت ألفاظ عدة في سورة الحجرات كانت كافية للإرشاد والتوجيه إلى ما بها من آداب وتوجيهات بها يمكن ضبط وإصلاح سلوكيات الفرد والمجتمع.

ثانياً: الأساليب الإنشائية

تميز النظم القرآني في سورة الحجرات بتنوعه بين الأساليب الإنشائية والخبرية فجاءت معانيها بين تحذير وترغيب وتنفير وتشويق، وجميع هذه الأغراض كانت في إطار التربية الحسنة وضبط السلوك النفسي والسلوك الاجتماعي.

ومن حيث الأساليب الإنشائية الواردة فقد تضمنت السورة الكريمة عدداً منها ما بين نداء ونهي وأمر واستفهام، وكان للنداء نصيب كبير من بين هذه الأساليب، ومجيء الأمر والنهي والاستفهام في ثناياه تقوية للمعنى المراد، وهذا سر من أسرار بلاغة التعبير بهذه الأساليب الإنشائية مجتمعة، وللأساليب الإنشائية دور قوي في جذب انتباه المتلقي وإثارة وجدانه، ومن الأساليب الإنشائية الواردة في السورة الكريمة:

١-**أسلوب النداء:** افتتحت سورة الحجرات بالأسلوب الإنشائي (النداء)، واقتران النداء بالنهي قد جاء مؤكداً للمعنى ومطابقاً لمقتضى الحال، شأنه

شأن القرآن الكريم كله الصادر عن الله (عزوجل) العالم بالأحوال ومقتضياتها، وفي سورة الحجرات نداء للمؤمنين خمس مرات، دلالة على عموم الخطاب:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١]، تحذير من عدم الاحتكام إلى شرع الله.

وقال تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، تحذير للمؤمنين من رفع أصواتهم في حضرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

كما وجه النداء للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ١١]؛ لحثهم على التثبت من الأخبار، وفي هذا هدم للوشاية، وهي سلوك سلبي ينبغي طرحه من المجتمع الإسلامي.

وقال تعالى: ﴿يأيها الذين أمنوا لا يسخر قوم من قوم﴾[الحجرات: ١٢]، النداء لتحذير المؤمنين من السلوكيات السلبية التي تقتحم حقوق الآخرين.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾[الحجرات: ١٣]. نداء موجه من الله تعالى للمؤمنين تحذير لهم من السلوكيات السلبية التي تكمن في النفس، وفي هذا ضبط للسلوك النفسي للمؤمنين.

٢-**أسلوب النهي:** ومن خصائص هذا الأسلوب في السورة الكريمة أنه موجه للمؤمنين والمراد به: التحذير، قال تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾[الحجرات: ٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ﴾[الحجرات: ١١] نهي للتحذير من السخرية من

الاخرين، كما نهى محذراً من اللمز في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[الحجرات: ١١]، كذلك نهى محذراً من التنابز بالألقاب في قوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾[الحجرات:١١]، كما حذر باستخدام الأسلوب الإنشائي (النهي) من التجسس ومن الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[الحجرات: ١٢] وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، وقد أدت الأساليب الإنشائية دورها في تقوية المعنى، وجذب انتباه المتلقي.

ثالثاً: الأساليب الخبرية

كان للأسلوب الخبري في هذا النظم المعجز رونقه الخاص وجمالياته التي لا تجدها في كلام البشر، وأدى استخدام الأساليب الخبرية إلى تنوع الأسلوب.

١- الحث والتشويق والترغيب باستخدام الأسلوب الخبري

تنوع الأسلوب في سورة الحجرات بين الإنشائية والخبرية، ومن الملاحظ أن الجمل الخبرية قد دلت كثيراً على معنى الحث والتشويق والترغيب، من ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[الحجرات: ٣] حث على أن يكونوا في صفوف من امتحن الله قلوبهم للتقوى وذلك بغض الصوت عند رسول الله، ثم التشويق والترغيب إلى نيل المغفرة والأجر العظيم، في ظل تأكيد هذا المعنى بإن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات:٥]، ترغيب في الصبر؛ لأنه خير.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩]، ترغيب في الإصلاح بين

الطائفتين المتقاتلتين والعدل وعدم تجاوز الحد من أجل أن الله تعالى يحب المقسطين.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠] حث على تقوى الله وترغيب في نيل الرحمة.

والحث والترغيب في التحلي ببعض الصفات التي بها ينالون مكانة عالية واستحقوا بها مدح الله تعالى وثناءه، وذلك في موضعين: قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[الحجرات:١٥].

٢- تنزيل غير السائل منزلة السائل

من الأساليب التي وقعت في سورة الحجرات، تنزيل غير السائل منزلة السائل، وقد بدا ذلك من خلال أسلوب التوكيد، وذلك باستخدام حروف التأكيد: (إنّ، وأنّ، وإنّما)، وهذا التأكيد من قبيل تنزيل غير السائل منزلة السائل، قال الخطيب القزويني: "وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض"[(١)]، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الحجرات:١]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[الحجرات: ٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ﴾[الحجرات:٤]، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ

(١) الإيضاح ٢٤.

اللَّهِ﴾ [الحجرات:٧]، و﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، و يتكرر التأكيد بإنَّ ثلاث مرات في آية واحدة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:١٣]، و﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٤]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[الحجرات:١٨]، كذلك تكرر التأكيد باستخدام أسلوب القصر وطريقه:(إنما) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[الحجرات:١٥]، ولعل كثرة التأكيد في الآيات دلالة على وجوب الالتزام بالآداب والأخلاق الاجتماعية، تحقيقاً للمقصد العام والأغراض الجزئية للسورة الكريمة.

٣-ذكر علة النهي عن بعض الآداب المنهي عنها

كقوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾[الحجرات:٢] بعد النهي عن رفع الأصوات والجهر بالقول.

كذلك قوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾[الحجرات:٦] بعد النداء للأمر بالتثبت من الأخبار.

والمعنى في كل: خشية حبوط أعمالكم أو خشية إصابتكم قوماً، فكل واحدة منهما نصبا على نزع الخافض وهو لام التعليل محذوفة. ويجوز كونه منصوبا على المفعول لأجله فقد تكون تعليلاً للنهي، ويكون المعنى حينئذ:

أنهم نهوا عن الفعل الذي فعلوه لأجل الحبوط، ولأجل الإصابة[١]، وقد تمت الإشارة إلى هذا سابقاً.

٤-**أصوات الحروف:** من ذلك تضعيف الأفعال: (حبّب .. زيّن .. كرّه)

ولا شك أن التضعيف يفيد التأكيد على قوة وجود وتأصل هذه الأشياء في نفوس المؤمنين بفضل الله، وفيها أيضاً دلالة على قوة عناية الله تعالى بهم.

قال د. محمد أبو موسى: "ومن المقرر في الدراسات الجادة أن أصوات الحروف – بَلْه الكلمات– تتسرب إلى مركز الحسن، ومواطن التأثير، فتثير الرؤي والأطياف، وتعمل أوصافها من اللين والقوة والرخاوة والتماسك عملها الخفي والمضمر في النفس الحساسة، فإذا ما تكرر صوت الحرف كان كأنه نقرة تتبع أخرى على وتر واحد فيتميز الرنين"[١].

٥-**جملة الشرط:** وجملة الشرط في سورة الحجرات حين تكررت برزت لها سمات خاصة، وذلك على النحو التالي:

أ-تكرر أسلوب الشرط في السورة الكريمة في موضعين من الملاحظ مجيئهما على نفس النسق، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات:٥]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات:٧]، وأسلوب الشرط جملة

(١) الكشاف ٣٥٥/٤، تفسير البيضاوي ٢١٢/٥، تفسير البحر المحيط ٥٠٨/٩، التحرير والتنوير ٢٢٠/٢٦، بتصرف.

(١) من أسرار التعبير القرآني (دراسة تحليلية لسورة الأحزاب) ٣٢٤.

حاسمة وقاطعة في أداء المعنى، ولغة الشرط: "لغة حاسمة وقاطعة"[(١)]، وفي الموضعين:

عبر عن المعنى باستخدام (لو) الشرطية الدالة على امتناع حصول الجواب لامتناع حصول الشرط، وجاء جواب الشرط مؤكداً باللام، وفصل بين فعل الشرط وجوابه بجملة اعتراضية (حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ) و(فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ)، وهذا التناغم في النظم جملة وتراكيباً لا يتأتى لبشر.

ب-كذلك استخدم أسلوب الشرط بأداة الشرط الجازمة (إنْ) الدالة على التقليل والشك مع اقتران الجواب بالفاء؛ لكونه جملة طلبية، وذلك قوله تعالى:﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ [الحجرات:٩]

٦-**إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بوضع المظهر (لفظ الجلالة) موضع المضمر**؛ لزيادة تمكين المسند إليه في ذهن السامع، والإشعار بقربه، وذلك إما **من خلال فاصلة قرآنية مؤكدة بإن:**

كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الحجرات:١]، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[الحجرات:١٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات:١٤]

---

(١) التجديد الشعري في ديوان أبي القاسم الشابي (محاولة جديدة لنقد بلاغي)، د. عزيزة عبدالفتاح الصيفي، ١١٢، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م.

أو من خلال فاصلة قرآنية غير مؤكدة: كقوله تعالى: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الحجرات:٨]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الحجرات:١٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[الحجرات:١٨]، ويظهر جمال هذه الفواصل في مجيؤهما جملة اسمية دلالة على الاستمرار والثبوت، والفاصلة القرآنية تأتي تابعة للمعنى وحسب ما يستلزمه السياق.

رابعاً: تعدد القراءات في سورة الحجرات

إن الكشف عن بعض الجوانب البلاغية للقراءات يثري المعنى، ويعين المتدبر على فهم كتاب الله، وقد تعدد القراءات في سورة الحجرات بشكل يستدعي الوقوف عنده.

والقراءات لغة: قرأ تدور في لسان العرب حول الجمع والاجتماع"[١]، "وقرأت القرآن أي: لفظت به مجموعاً"[٢].

اصطلاحاً: "القراءات: علم لكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة"[٣].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس أبي الحسن أحمد بن زكريا (ت٣٩٥)، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ٧٨/٥، دار الفكر، القاهرة، لسان العرب مادة: (قرأ).

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي السيد محمد مرتضى، مادة: (قرأ)، ٣٧٠/١، مكتبة التراث العربي، الكويت، ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

(٣) منجد المقرئين، ابن الجزري الحافظ أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي (ت:٨٣٣)، اعتنى به: علي بن محمد العمران، ٤٩، طبعة عالم الفوائد، مكة المكرمة.

"وقد تفرد النص القرآني دون غيره من النصوص بهذه الإمكانات التي يضفيها تعدد قراءاته وتغايرها على المعنى الدلالي"(١)، وفرق الزركشي بين القرآن والقراءات بقوله(٢): "القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان. فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) للبيان والإعجاز، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كِتبة الحروف، أو كيفيتها، من تخفيف وتثقيل وغيرهما..".

ولعل خلاصة القول في تعدد القراءات أنه "إذا ما ظهر الفرق بين المعنيين تبين لنا سر إيثار أحدهما على الآخر في مقام دون مقام وسياق دون سياق في الكتاب المبين"(١)، وفيما يلي توجيه لبعض القراءات الواردة في السورة الكريمة:

١-قوله تعالي: ﴿**تَقَدَّمُوا**﴾، "قريء: (لا تُقَدَّموا) بحذف إحدى التاءين، وحينئذ فهو من (قدّم) بمعنى: (تقدَّم)، ومنه مقدمة الجيش للجماعة المتقدمة، وقرئ لا تُقْدِموا من القدوم، أى لا تقدموا إلى أمر من أمور الدين قبل قدومها، ولا تعجلوا عليهما"(٢).

"وقرىء لا تَقَدَّمُوا قال الزجاج : معناه إذا أُمرتم بأَمر فلا تفعلوه قبل الوقت الذي أُمرتم أَن تفعلوه فيه وجاء في التفسير : أَن رجلاً ذَبح يوم النحر قبل الصلاة فتقدّم قبل الوقت فأَنزل الله الآية وأَعْلَمَ أَن ذلك غير جائز...، و قَدَّمَ بين يديه أَي تَقَدَّم وقوله عز وجل : ﴿لا تُقَدِّموا بين يدي الله ورسوله﴾

(١) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ٩١.
(٢) البرهان ٣١٨/١.
(١) من عطاء نظم القرآن الكريم ٣٣.
(٢) الكشاف ٣٤٩/٤ ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١١٦/٨.

ولا تَقَدَّموا فسره ثعلب فقال : من قرأ تُقَدّموا فمعناه: لا تُقدّموا كلاماً قبل كلامه، ومن قرأ لا تَقَدَّموا فمعناه: لا تَقَدَّموا قبله"(١).

والقراءة الأولى ملائمة لكلام العرب حيث "تقول العرب : تقدمت في كذا وكذا، وقدمت إذ قلت فيه"(٢)، كما تقول: :لا تُقَدِّم بين يدي الإمام وبين يدي الأب، أي لا تعجل بالأمر والنهي دونه"(٣).

ورجح الزمخشري القراءة الأولى أيضاً؛ لأنها "أملأ بالحسن وأوجه، وأشد ملاءمة لبلاغة القرآن، والعلماء له أقبل"(١).

وعد ابن جني القراءة الثانية من القراءات الشاذة، يقول: "قرأ الضحاك ويعقوب: ﴿لا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، قال أبو الفتح : أي لا تفعلوا ما تؤثرونه، وتتركوا ما أمركم الله به. وهذا هو معنى القراءة العامة : ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: لا تُقَدَّموا أمراً على ما أمركم الله به، فالمفعول هنا محذوف كما ترى"(٢).

٢-"وقرئ: **(لا ترفعوا بأصواتكم)** على أن الباء زائدة"(٣)، وهي "قراءة ابن مسعود... محذوّ بها حذو التشديد في قول الأعلم الهذلي : رفعت عينى بالحجاز إلى أناس بالمناقب

---

(١) لسان العرب، مادة: (قدم)، ٤٦٥/١٢، بتصرف.
(٢) تفسير البحر المحيط ٥٠٦/٩.
(٣) تفسير البغوي ٢٥١.
(١) الكشاف ٣٤٩/٤ .
(٢) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، المؤلف : أبو الفتح عثمان بن جنى، ٢٧٧/٢، وزارة الأوقاف – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.
(٣) الكشاف ٤٥٣/٤، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١١٦/٨.

وليس المعنى في هذه القراءة أنهم نهوا عن الرفع الشديد، تخيلا أن يكون ما دون الشديد مسوغاً لهم، ولكن المعنى: نهيهم عما كانوا عليه من الجلبة، واستجفاؤهم فيما كانوا يفعلون"[١]، وعلى هذا فالقراءة الأولى فيها شمول وعموم الخطأ، وجعل الفراء القراءتين بمعني واحد، قال: "وقوله عز وجل: ﴿لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ...﴾، وفى قراءة عبدالله "بأصواتكم"، ومثله فى الكلام: تكلم كلاماً حسناً، وتكلم بكلام حسن"[١].

٣-قوله: ﴿**أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ**..﴾ ورد في إعرابه: الرفع والجزم، فقيل: "معناه: لا تحبطُ وفيه الجزم والرفع إذا وضعت (لا) مكان (أن)، وقد فُسر في غير موضع، وهي في قراءة عبد الله: فتحبطَ أعمالكم، وهو دليل على جواز الجزم فيه"[٢]؛ لكونه جواب شرط حينئذ دخلت عليه الفاء.

"وقراءة ابن مسعود : فتحبط أعمالكم ، أظهر نصا بذلك، ...." [٣]

أي أظهر نصاً بجواز الجزم.

٤-"وقرىء: **(الحجرات)** بفتح الجيم وبسكونها وثلاثتها جمع حجرة"[٤]، وفي فتح القدير: "قرأ الجمهور: الحجُرات بضم الجيم. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بفتحها تخفيفاً، وقرأ ابن أبي عبلة: بإسكانها، وهي لغات"[٥].

وفي كلام الشوكاني ما يفيد أن قراءة الفتح للتخفيف، وذكر الفراء أن قراء الرفع أجود، قال: "وبعض العرب يقول: الْحُجَرات والرُّكَبات وكل جمع كأن

---

(١) الكشاف ٣٥٣/٤.
(١) معاني القرآن ٧٠/٣.
(٢) معاني القرآن ٧٠/٣.
(٣) الكشاف ٣٥٥/٤.
(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١١٧/٨.
(٥) فتح القدير ٧٠/٥ .

يقال في ثلاثةٍ إلى عشرةٍ: غُرَف، وحُجَر، فإذا جمعته بالتاء نصبت ثانية، فالرفع أجودُ من ذلك"[١].

والقراءتان تؤديان نفس المعنى، وأن "الحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها"[١]، والمراد في الآية: حجرات نساء النبي.

٥-**(فتبينوا)**، "قرأ الجمهور: (فتبينوا) من التبين، وقرأ حمزة والكسائي: (فتثبتوا) من التثبت، والمراد من التبين: التعرف والتفحص، ومن التثبت: الأناة وعدم العجلة، والتبصر في الأمر الواقع، والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر"[٢].

"وقرئ: (فتثبتوا) أي توقفوا إلى أن يتبين لكم الحال"[٣]. "وقرأ ابن مسعود: (فتثبتوا). والتثبت والتبين : متقاربان، وهما طلب الثبات والبيان والتعرّف"[٤]، "وكلاهما تفعل بمعنى استفعل التي للطلب، أي: اطلبوا إثبات الأمر وبيانه، ولا تقدموا من غير روية وإيضاح"[٥].

وبين الكلمتين "نوع ما من الاختلاف الصوتي، وذلك بأن يتعاقب على الكلمة حرفان أو أكثر، فيبدل أحدهما من الآخر بما يُغَيِّر الكلمة عن أصلها ومعناها..، وأكثر ما وقع هذا النوع في القراءات المتواترة، ويقل وقوعه فيما سواها"[٦].

---

(١) معاني القرآن ٣/٧١.
(١) فتح القدير ٥/٧٠ .
(٢) السابق ٥/٧٠ .
(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٨/١١٨.
(٤) الكشاف ٤/٣٦٠.
(٥) تفسير البحر المحيط ٤/٣٢.
(٦) التوجيه البلاغي للقراءات٨٧.

ووجه بعض العلماء هاتين القراءتين بأن بينهما تقارباً في المعنى؛ لأن من تبين فقد تثبت ومن تثبت فقد تبين(١).

وقيل: "تبينوا أبلغ وأشد من فتثبتوا؛ لأن المتثبت قد لا يتبين، وقد قوبل بالعجلة في قوله عليه السّلام : «التبين من اللّه والعجلة من الشيطان»... ومقابلة العجلة بالتبين دلالة على تقارب اللفظين"(٢).

وإذا كان التثبت يأتي أولاً ثم يأتي التبين؛ ليكون ثمرة له ونتيجة، فالتبين أبلغ وأشد وأكثر ملاءمة للمقام؛ لذا أوثر هذا اللفظ. ذكر صاحب التحرير والتنوير أن: "مآل القراءتين واحد وإن اختلف معناهما"(٣) لكن التبين أكثر ملاءمة للمقام.

٦-"وعن أبى عمرو : **(حتى تفي)**، بغير همز، ووجهه أنّ أبا عمرو خفف الأولى من الهمزتين الملتقيتين فلطفت على الراوي تلك الخلسة، فظنه قد طرحها"(٤)، هكذا ذكر الزمخشري هذه القراءة ووجهها.

وعلى هذا فالقراءتان تؤديان معنى واحداً، وما حذفت الهمزة إلا للتخفيف، وهذا التخفيف لا يؤثر على المعنى.

" وَهى فى قراءة عبدالله: ... حتى يَفِيئُوا إلى أمر الله فإن فاءوا فخذوا

---

(١) الحجة في القراءات السبع، المؤلف : الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله، تحقيق : د. عبد العال سالم مكرم، ١٢٦، دار الشروق – بيروت، الطبعة الرابعة ، ١٤٠١هـ، الكشاف ٣٦٠/٤، بتصرف.

(٢) إعراب القرآن، تأليف : أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، تحقيق : د.زهير غازي زاهد، ٢١١/٤، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م، تفسير البحر المحيط ٣٢/٤، بتصرف.

(٣) التحرير والتنوير ٢٣١/٢٦ ، ٢٣٢.

(٤) الكشاف ٣٦٤/٤.

بينهم"[١] مراعاة لصيغة الجمع (اقتتلوا) في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ...﴾، حيث عبر النظم القرآني عن قتال الطائفتين بصيغة الجمع: ﴿**اقْتَتَلُوا**﴾ ولم يقل: اقتتلتا، والتثنية أبلغ، ووجه حسن ذلك، ما ذكره الزمخشري حيث قال: "هو مما حمل على المعنى دون اللفظ؛ لأنّ الطائفتين في معنى القوم والناس"[٢].

٧- قوله: ﴿**فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾[الحجرات:١٠]، "قرئ: بين إخوتكم وإخوانكم"[٣].

قرأ ابن عامر وحده: (بين إخوتكم) على تاء جماعة، ... وقرأ الباقون بين أخويكم على اثنين[٤].

"فالحجة لمن قرأه بالياء أنه رده على اللفظ لا على المعنى، والحجة لمن قرأه بالتاء أنه رده على المعنى لا على اللفظ"[٥].

"وقرأ الجمهور من القراء: (بين أخويكم) وذلك رعاية لحال أقل عدد يقع فيه القتال والتشاجر والجماعة متى فصل الإصلاح فإنما هو بين رجلين رجلين. وقرأ ابن عامر والحسن بخلاف عنه: (بين إخوتكم)"[١].

---

(١) معاني القرآن ٢٦/٥ بتصرف.
(٢) الكشاف ٣٦٤/٤.
(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢١/٨.
(٤) السبعة في القراءات، المؤلف : أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي، تحقيق : د.شوقي ضيف، ٦٠٦ بتصرف، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثانية ، ١٤٠٠هـ.
(٥) الحجة في القراءات السبع ٣٣٠.
(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)،المحقق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، ٥/ ١٤٨، دار الكتب العلمية –بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

"قال أبو الفتح: هذه القراءة تدل على أن القراءة العامة التي هي: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ لفظها لفظ التثنية، ومعناها الجماعة، أي: كل اثنين فصاعداً من المسلمين اقتتلا فأصلحوا بينهما. ألا ترى أن هذا حكم عام في الجماعة، وليس يختص به منهم اثنان مقصودان؟ ففيه إذا شيئان: أحدهما: لفظ التثنية يراد به الجماعة، والآخر: لفظ الإضافة لمعنى الجنس"(١).

والقراءة الأولى (أخويكم) أبلغ، ووجه ذلك أن هذا اللفظ "لفظ التثنية، والمراد به الكثرة والعموم"(٢) وكذلك قال البقاعي: "وقراءة الجماعة أبلغ؛ لدلالتها على الاثنين فما فوقهما بالمطابقة"(٣).

٨-قوله تعالى: ﴿وَلَا **تَلْمِزُوا** أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، "قرأ الجمهور: (تلمِزوا) بكسر الميم. وقرأ الأعرج والحسن: (تلمُزوا) بضم الميم. قال أبو عمرو بن العلاء: هي عربية. قراءتنا بالضم وأحياناً بالكسر"(٤).

وجاء في الصحاح: اللمز: العيب، وأصله الاشارة بالعين ونحوها. وقد لَمَزَهُ يَلْمُزُهُ ويَلْمِزُهُ لَمْزاً. وقريء بهما قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾[التوبة:٥٨]. ورجل لمّازٌ ولُمَزَةٌ، أي عَيّاب. ويقال أيضاً: لَمَزَهُ يَلْمِزُه لَمْزاً، إذا ضربه ودفعه"(١)، فكلاهما في لغة العرب ولا فرق بين القراءتين في المعنى.

---

(١) المحتسب ٢/٢٧٧.
(٢) الحجة للقراء السبعة ٦/٢٠٩ بتصرف.
(٣) نظم الدرر ٧/٢٣٢.
(٤) المحرر الوجيز ٥/١٥٠.
(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، ٣/٨٩٥، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٩-﴿**وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**﴾ "وقريء بالحاء من الحس الذى هو إثر الجس وغايته، ولتقاربهما يقال للمشاعر الحواس بالحاء والجيم"(١). "وقريء: ولا تحسسوا بالحاء والمعنيان متقاربان. يقال: تجسس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه: تفعل من الجس...، والتحسس: التعرّف من الحس، ولتقاربهما قيل لمشاعر الإنسان: الحواس بالحاء والجيم"(٢).

ولعل القراءة الأبلغ: (تجسسوا)؛ لأن التجسس أخص من الحس، ومراد السورة الكريمة: ضبط السلوك النفسي والاجتماعي وتحديد معالم المجتمع الإسلامي، فكانت العناية بأدق التفاصيل، فجاء النهي عن كل ما يؤذي المؤمن وينتهك حرمته قلّ أو كثر و"الجس أخص من الحس، فإن الحس تعرف ما يدركه الحس. والجس: تعرف حال ما من ذلك"(٣).

١٠-قوله: ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدكُم أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخيهِ مَيْتًا**﴾[الحجرات:١٢]، "قرأ نافع وحده ميّتًا بالتشديد، وقرأ الباقون ميْتًا ساكنة الياء، ومعناه أن ذاكر اخيه بالسوء في غيبته وهو لا يحس به كآكل لحمه ميتا"(١).

ومن حيث المعنى: "فالميت والميّت بمعنى، كما أن سيداً وسيّداً، وطيباً وطيّباً كذلك، وكما أنّ هاراً وهائراً بمعنى، كذلك التشديد في ميت في المعنى كالتخفيف، وممّا يدلّ على ذلك قول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميّت الأحياء، فأوقع المخففة والمشددة على شيء واحد".

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٢٢/٨.
(٢) الكشاف ٣٧٢/٤ بتصرف.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن ١٨٣/١.
(١) السبعة في القراءات ٦٠٦، الحجة في القراءات السبع ٣٣١ .

قال الطبري: "واختلفت القراء في قراءة قوله: (لحم أخيه ميتاً) فقرأته عامة قراء المدينة بالتثقيل (ميِّتاً)، وقرأته عامة قراء الكوفة والبصرة (ميْتاً) بالتخفيف، وهما قراءتان عندنا معروفتان متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب"(١).

وما من فرق بين القراءتين في المعنى، بيد أن الثقل الذي ينشأ عن التضعيف يؤدي إلى تأكيد المعنى وتقويته حين يترك في النفس أثراً قوياً يؤكد ثقل ذلك الأمر وشدة الخطأ حين يغتاب المؤمن أخيه، فالقراءة بالتشديد تفيد القوة والمبالغة، لما له من وقع ثقيل على السمع يفيد عظم الأمر.

١١-"قوله تعالى: ﴿**لا يَلْتِكُمْ**﴾ يقرأ بالهمز وتركه من ألت يألت، والحجة لمن ترك الهمز أنه أخذه من لات يليت ومعناهما: لا ينقصكم"(٢)، و"قرأ أبو عمرو وحده لا يألتكم مهموز، وقرأ الباقون: لا يلتكم"(١).

و"حجّة أبي عمرو في قراءته: (لا يألتكم): وما ألتناهم، فألتناهم مضارعه يألتكم، ومن قرأ: لا يلتكم جعله من لات يليت...، وحجّة من قال: (لا يلتكم) أنّهم زعموا أنّه ليس في الكتاب ألف ولو كانت منه. كتبت بالألف كما يكتب في: يأمر، ويأبق، ونحوه في المعنى [بثبوت الألف الساكنة في موضعها]"(٢).

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن ٣٠٩/٢٢.
(٢) الحجة في القراءات السبع ٣٣١ .
(١) السبعة في القراءات ٦٠٦.
(٢) الحجة للقراء السبعة ٢١١/٦ بتصرف.

"واختار قراءة أبي عمرو أبو حاتم لقوله: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[الطور:٢١]...، واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور...، وهما لغتان فصيحتان"(١).

وقراءة الجمور (يلتكم) أصوب، كذلك صوب الطبري القراءة بدون همزة فقال: "والصواب من القراءة عندنا في ذلك، ما عليه قراء المدينة والكوفة(لا يلتكم) بغير ألف ولا همز، على لغة من قال: لات يليت، لعلتين: إحداهما: إجماع الحجة من القراء عليها. والثانية أنها في المصحف بغير ألف، ولا تسقط الهمزة في مثل هذا الموضع، لأنها ساكنة، والهمزة إذا سكنت ثبتت، كما يقال: أمرون وتأكلون، وإنما تسقط إذا سكن ما قبلها، ولا يحمل حرف في القرآن إذا أتى بلغة على آخر جاء بلغة خلافها إذا كانت اللغتان معروفتين في كلام العرب. وقد ذكرنا أن ألت ولات لغتان معروفتان من كلامهم"(٢).

١٢- قوله: ﴿**والله بصير بما تعملون**﴾، "قرأ ابن كثير وأبان عن عاصم: (والله بصير بما يعملون) بالياء، وقرأ الباقون: (والله بصير بما تعملون) بالتاء، وليست فى هذه السورة ياء إضافة"(١)، "قوله تعالى: ﴿والله بصير بما تعملون﴾ إجماع القراء على التاء خطاباً للحاضرين إلا ابن كثير فإنه قرأه بالياء على معنى الغيبة"(٢).

ولعل القراءة بالتاء أكثر ملاءمة للمقام؛ لعموم الخطاب في السورة الكريمة، و"وجه التاء أنّ قبله خطابًا، وهو قوله: ﴿لّا تَمُنُّوا عَلَيَّ

(١) فتح القدير ٥/٨٠.
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن ٢٢/٣١٨.
(١) السبعة في القراءات ٦٠٦.
(٢) الحجة في القراءات السبع ٣٣١ .

إِسْلامَكُم﴾[الحجرات:١٧] فالتاء لهذا الخطاب، ووجه الياء أنّ قبله غيبة، وهو قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[الحجرات:١٥]"[(١)].

والقراءة بالخطاب أقوى تأثيراً في النفس وأبلغ أثراً في تحقيق المراد، فالخطاب المباشر يحمل النفس على التنبه واليقظة ويثير بداخلها جوانب الشعور فتتأثر بما في الآية من زجر وتخويف.

(١) الحجة للقراء السبعة ٦/٢١٢.

الخاتمة

كانت هذه محاولة للوقوف على بعض الأسرار البلاغية في النظم القرآني، فسورة الحجرات كنز ثمين فيها نور وهداية وأسس عظيمة وإرشادات قويمة لو اتبعها المسلم لصلحت المجتمعات، وفيها محاور أساسية مواكبة للحضارات وازدهار العصور، وقادرة على بناء المجتمعات إن جعل القرآن منهج حياة، وفيما يلي عدد من النتائج المستفادة من البحث:

١- تتضح بلاغة النظم القرآني في سورة الحجرات من خلال الأسلوب القرآني المعجز وما استُمِد منه من معان عُبر عنها بأفصح الألفاظ، فكانت النتيجة: وضع خطة إصلاحية شاملة لضبط وتعديل السلوكيات السلبية في المجتمع، خطة صالحة لتعديل السلوك النفسي والاجتماعي.

٢- بدأت الآيات بالإرشاد إلى طاعة الله ورسوله ثم انتقلت من معنى إلى آخر متشحة بذات الرداء، فمراعاة حقوق الآخرين وغير ذلك مما دعت إليه السورة من مكارم الأخلاق أو ما حذرت منه من سلوكيات سلبية تهدم المجتمع وتؤثر على نفسية الفرد، كلها أمور متعلقة بطاعة الله ورسوله والاحتكام إليهما، من أجل ضبط سلوك المجتمع الإسلامي، فإذا ما التزم المؤمنون بمكارم الأخلاق قلباً وروحاً، نفساً وعقلاً، قولاً وفعلاً، كان ذلك أدعى لإقناع بقية المجتمعات بعبادة الله وطاعة رسوله اللذان هما أصل هذا التشريع، وقد جاء هذا المعنى في ثوب بلاغي معجز لفظاً ومعنى.

٣- وبتتبع حركة المعنى في السورة بحثاً عن مناسبة الآية لما قبلها تجد أن المعاني تتناغى وتتلاحم وتدور حول محور واحد هو مقصدها الذي اختصت به حيث تتعانق جميع الآيات مع الآية الأولى، فالسورة قد امتلأت بالآداب والفضائل والأخلاق الحميدة والسلوكيات التي يجب أن

يتحلى بها المؤمن، وهذا المعنى العام يتوافق مع النداء في مفتتح السورة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، فالآية الأولى رأس السورة، والله أعلم.

٤- لم يخل النظم القرآني في سورة الحجرات من فنون البيان، كناية وتشبيه واستعارة، وليست هذه الفنون هي التي أضفت على النظم جمالاً وزادته شرفاً، إنما هي أمور اقتضاها هذا النظم المعجز فجاءت ملاءمة للأحوال ومقتضياتها.

٥- سورة الحجرات على قلة آياتها تنوع أسلوبها ما بين تحذير وترغيب وتنفير وتشويق، وجميع هذه الأغراض جاءت في إطار التهذيب والتأديب وضبط السلوك النفسي والسلوك الاجتماعي.

٦- اختص النظم القرآني في سورة الحجرات بسمات أسلوبية جاءت مناسبة لحركة المعنى في السورة، وملاءمة للأحوال ومقتضياتها، فخطاب الله تعالى جاء موجهاً للمؤمنين – الذين كانوا حول الرسول والذين يجيئون من بعدهم– حثاً لهم على الإقبال والاستجابة حتى ينالوا النعيم في الدنيا والآخرة، ومن بين هذه السمات: التعبير بألفاظ دالة على المقصد الكلي والأغراض الجزئية، ومضفية على سورة الحجرات رونقاً خاصاً حيث إن هذه الألفاظ بعينها تعد سمة من سمات السورة الكريمة، كما كثرت الأساليب الإنشائية فأدت دورها في إثراء المعنى وجذب انتباه الملقي، كذلك كان للجمل الخبرية دورها في إبراز جمال النظم ودقة اختيار ألفاظه ومعانيه.

٧- إن النظم القرآني المعجز في سورة الحجرات يخلق من المسلم كياناً قوياً مستقلاً بذاته ومنخرطاً ضمن مجتمعه الإسلامي في آن واحد، وذلك حين يوضح للمؤمنين باستخدام الفعل الماضي ما وهبهم إياه من

سلوكيات روحية (وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) وحين يرشدهم إلى الآداب الاجتماعية ضمن أسلوب القصر ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، والنفسية مستخدماً الأسلوب الإنشائي (النهي) ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾،﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب﴾، وكافة الفضائل والقيم الأخلاقية من خلال الأسلوب الإنشائي، كذلك حين يدعوهم إلى امتلاك القدرات العقلية السديدة وذلك بالحث على الصدق مع النفس وعدم الشك في صدق عقيدتهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، إنها تدعو إلى التكيف الاجتماعي والتفاعل مع الآخرين.

٨- تعددت القراءات في سورة الحجرات، وقد كشف كثير من العلماء عن توجيه القراءات القرآنية، وقد تبين – كما ورد في البحث- أن معرفة المعنى المراد سبب موصل للقراءة الأكثر مناسبة وملاءمة للمقام.

وختاماً: يظل كلام الله (تعالى) باقياً بنظمه وإعجازه المتنوع، ودقائق خصائصه، وما فيه من نور لا ينطفيء، لذا أسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذه المحاولة في كتابة هذه السطور وأن يبارك في عملي، وأسأله تعالى أن يغفر لي زللي وتقصيري كما أسأله تعالى أن يجعل القرآن نبراساً لدروب السالكين ومنهج حياة للعالمين.

ثبت المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم.

١. الإتقان في علوم القرآن، المؤلف : أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المحقق: مركز الدراسات القرآنية، دار النشر : مجمع الملك فهد، السعودية، الطبعة : الأولى.

٢. أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر، تحقيق : محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ١٤٠٥هـ.

٣. الآداب الشرعية، عبد الله بن محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وأحمد القيام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٤. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥. أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.

٦. أسرار ترتيب القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام – القاهرة.

٧. إعراب القرآن، تأليف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، تحقيق : د.زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م.

٨. آل حم (غافر – فصلت) دراسة في أسرار البيان، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٩. أيسر التفاسير لكلام العلي القدير، وبهامشه نهر الخير على أيسر التفاسير، لأبي بكر جابر الجزائري، دار الحديث، القاهرة، دار العلوم والحكم بالمدينة المنورة، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

١٠. الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، تأليف: الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)، دار إحياء العلوم – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م.
١١. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى : ٧٩٤هـ)، المحقق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة : الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧م.
١٢. بغية الإيضاح لتلخيص علوم المفتاح في علوم البلاغة والمعاني والبيان والبديع تأليف عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط١٧، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
١٣. تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي السيد محمد مرتضى، مكتبة التراث العربي، الكويت، ط٢، ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م.
١٤. التجديد الشعري في ديوان أبي القاسم الشابي (محاولة جديدة لنقد بلاغي)، د. عزيزة عبد الفتاح الصيفي، ١٤٢٣هـ –٢٠٠٢م.
١٥. التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس.
١٦. التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
١٧. تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (القرن الثامن)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ.

١٨. تفسير البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار الفكر، بيروت.
١٩. التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت:١٠٣١هـ)، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
٢٠. جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، مكتب التحقيق بدار هجر، الطبعة : الأولى.
٢١. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.
٢٢. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (ت: ١٠٦٩هـ)، دار صادر، بيروت.
٢٣. الحجة في القراءات السبع، المؤلف : الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله، تحقيق : د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق – بيروت، الطبعة الرابعة ، ١٤٠١هـ
٢٤. الحجة للقراء السبعة، المؤلف: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي (المتوفى: ٣٧٧هـ)، المحقق: بدر الدين قهوجي – بشير جويجابي، راجعه ودققه: عبد العزيز رباح – أحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

٢٥.حركة المعنى في سورة الفجر (دراسة بلاغية)، د. إبراهيم صلاح الهدهد، مكتبة الإيمان، مكتبة الجامعة الأزهرية، ١٩٩٨م.
٢٦.دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
٢٧.روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن، تأليف: الشيخ محمد علي الصابوني، دار الصابوني، القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
٢٨.روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ.
٢٩.السبعة في القراءات، أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي، تحقيق: د.شوقي ضيف، بتصرف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية ، ١٤٠٠هـ.
٣٠.سنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.
٣١.سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض (جـ ٤، ٥)، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م.

٣٢.السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان،الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م.

٣٣.شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، المؤلف : ابن أبي العز الحنفي، المحقق : أحمد محمد شاكر، الناشر : وكالة الطباعة والترجمة في الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

٣٤.الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

٣٥. صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وسننه وأيامه)، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١ ، ١٤٢٢هـ.

٣٦.صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي– بيروت.

٣٧.فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ.

٣٨.الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، حققه وعلق عليه:

محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.
٣٩. الفوائد، ابن قيم الجوزيه، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
٤٠. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المؤلف: العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري٤٦٧-٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ.
٤١. لباب النقول في أسباب النزول، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى : ٩١١هـ)، ضبطه وصححه : الأستاذ أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.
٤٢. لسان العرب، المؤلف : محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى.
٤٣. مجمل اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٤٤. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى : ٧٢٨هـ)، تحقيق : أنور الباز – عامر الجزار، دار الوفاء، الطبعة : الثالثة ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.
٤٥. محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٤٦. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جنى، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

٤٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)،المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

٤٨. مختارات من النصوص العربي، دراسة بلاغية نقدية، د. عزيزة عبد الفتاح الصيفي، مطابع الحصري.

٤٩. مختصر تفسير القرآن العظيم المسمى: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، اختصار وتحقيق: أحمد محمود شاكر، أتمه: أنور الباز، المجلد الثالث، دار الوفاء، الطبعة العاشرة، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.

٥٠. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٥١. مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المالكي، المكتبة العتيقة ودار التراث.

٥٢. معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المؤلف : محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى : ٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة : الأولى، ١٤٢٠ هـ.

٥٣.معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت :٢٠٧هـ)، تحقيق : أحمد يوسف نجاتى، محمد علي نجار، عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار المصرية للترجمة والنشر.
٥٤.معجم البلاغة العربية د عبده عبد العزيز قلقيلة نقد ونقض، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
٥٥.معجم مقاييس اللغة، ابن فارس أبي الحسن أحمد بن زكريا (ت٣٩٥)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة.
٥٦.مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٥٧.مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم، دار القلم، دمشق.
٥٨.من أسرار التعبير القرآني (دراسة تحليلية لسورة الأحزاب) د.محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط٣، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.
٥٩.منجد المقرئين، ابن الجزري الحافظ أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي (ت: ٨٣٣)، اعتنى به: علي بن محمد العمران، طبعة عالم الفوائد، مكة المكرمة.
٦٠.من عطاء نظم القرآن الكريم (دراسة تحليلية لسورة الأنبياء)، د.عبد الحميد محمد العيسوي، مطبعة أبناء وهبة حسان، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.
٦١.من علوم القرآن وتحليل نصوصه، د. عبد القادر حسين، دار قطري بن الفجاءة، قطر.
٦٢.النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن الكريم)، د. محمد عبد الله دراز، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٥م.

٦٣.نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، المؤلف : برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

المجلات والدوريات:

١- الحوار والتسامح في الخطاب القرآني، أ.د. سامي شهيد مشكور، جامعة الكوفة- كلية الآداب، بحث بحولية المنتدى، العراق، المجلد ١٧، العدد ٧، ٢٠١٤م.